نشأة المسألة المصرية فى السياسة الرومانية

٨٠ – ٥١ ق . م .

تمهيد :

ترجع علاقة مصر البطلمية مع روما إلى عهد بطلميوس فيلادلفوس ، ثانى من تربعوا على عرش مصر من الملوك البطالمة ، فقد حدثنا المؤرخ الرومانى ليفيوس(١) بأن فيلادلفوس هو الذى أوفد إلى روما فى عام ٢٧٣ ق . م . أول سفارة توجهت إليها من الشرق . وبعث مجلس الشيوخ الرومانى سفارة مماثلة إلى مصر ، استقبلت فى الإسكندرية استقبالا كريماً . وليس من شك فى أن اتفاقاً قد أبرم بين مصر وروما حينئذ . ونحن وإن كنا لا نعرف طبيعة هذا الاتفاق ، إلا أننا نرجح أنه كان ذا صبغة تجارية لسببين رئيسيين : أولهما أن المصالح السياسية المشتركة بين الدولتين لم تكن قد وجدت فى تلك الآونة ، وثانيهما اهتمام فيلادلفوس الشديد بالشئون التجارية(٢) .

واستمرت العلاقات قائمة بعد ذلك بين مصر وروما ، غير أنها لم تجاوز حدودها التجارية الضيقة حتى فرغت روما من حروبها مع قرطاجة . ومنذ

---

(١) Livy, 13, 9, 1-5; M. Rostovtzeff, Social and Economic History of the Hellenistic World, Vol. I p. 395; M. Holleaux, Rome, La Grèce et Les Monarchies Hellenistiquies au 3ème. Siècle av. J.C., p. 60; H.F. Pelham, Outlines of Roman History, p. 162; W.W. Tarn, J.E.A. Vol. XIV, p. 251.

(٢) يذهب لكلرك (B.-Léclercq, Histoire des Lagides, Vol. I, p. 319) إلى أن المعاهدة التى أبرمت حينئذ بين مصر وروما كانت ذات طابع سياسى أيضاً ، وأن فيلادلفوس كان يهدف من ورائها إلى تقوية نفوذه فى الشرق ضد مقدونيا ، ولكننا نستبعد هذا الاحتمال ؛ إذ الثابت أن روما لم تكن قد بدأت – آنئذ – التفكير فى شئون الشرق ، بل إن تاريخ الشرق كله كان بالنسبة لها – فى خلال القرن الثالث ق.م – كتاباً مغلقاً كما يقول فرانك (Cf. T. Frank, Roman Imperialism, p. 120)

عهد الملك بطلميوس الخامس (إپيفانس) أخذت هذه العلاقات تتخذ مظهراً جديداً ، فقد أحدقت الأخطار بمصر فى عهد هذا الملك عندما انتهز فرصة صغر سنه كل من فيليب الخامس ملك مقدونيا ، وأنتيوخوس الأكبر ملك سليوكيا ، واتفقا معاً على اقتسام ممتلكات مصر الخارجية فيما بينهما[١] ؛ عندئذ لم ير أجاثوكليس (Agathocles) – الذى تولى الوصاية على ملك مصر الصغير – إلا أن يبعث إلى السناتو طالباً التوسط بين مصر وسليوكيا لحماية مولاه الصغير[٢] .

وكانت تلك الاتفاقية المشئومة التى عقدت بين فيليب وأنتيوخوس لاقتسام ممتلكات مصر الخارجية ، فاتحة الأحداث السياسية والحربية التى تمخضت آخر الأمر عن إذلال مقدونيا ثم سليوكيا – أقوى دولتين فى العالم الهيلينستى عندئذ – كما كانت سبباً فى وضع مصر – ثالثة هذه الدول قوة – تحت الحماية الرومانية . وعندما وضعت تسوية أباميا فى عام ١٨٨ ق . م . بعد انتصار روما على سليوكيا فى معركة مغنيسيا (عام ١٨٩ ق . م .) ، أضحت روما عاملا حاسماً فى سياسة الشرق الهيلينستى ، الذى لم تبق فيه دولة واحدة تتمتع باستقلالها كاملا ، إذ أصبح أعضاء السناتو هم الموجهون الحقيقيون لسياسة هذه الدول .

وتدخلت روما بعد ذلك تدخلا سافراً فى شئون مصر على عهد الأخوين فيلوميتور وإيوارجتيس الثانى ، فقد أنقذهما من الملك السلوكى السفير الرومانى بوبيليوس لايناس ، ومن ثم أصبح كلاهما مديناً لروما بعرشه وتاجه . ثم وقفت روما بعد ذلك فى صف الأخ الأصغر (إيوارجتيس الثانى) تؤيده ضد أخيه الأكبر (فيلوميتور) صاحب الحق الشرعى فى تاج مصر ، لكنها وجدت فى هذا الأخ الأكبر ملكاً شديد المراس معتزاً بكرامته متمسكاً بحقوقه ، فلم تستطع إكراهه على النزول عند رغباتها[٣] .

---

(١) Polyb. III, 2; XV, 20.

(٢) Ibid. XV 24a; XIII, 1-3; M. Holleaux, op. cit., p. 72.

(٣) راجع التفاصيل فى ، محمد عواد حسين « شئون مصر الداخلية وسياستها الخارجية على عهد إيوارجتيس الثانى » ص ٢٧٢ وما بعدها (رسالة لم تنشر مودعة بمكتبة جامعة القاهرة) .

واعتلى عرش مصر إيوارجيتيس الثانى عقب وفاة أخيه فيلوميتور ، فزارته سفارة رومانية كان على رأسها قاهر قرطاجة سكبيو أيميليانوس . وليس هناك شك فى أن هذه السفارة قد أوفدت لدراسة شئون مصر المختلفة تمهيداً لاحتلالها الذى لابد أن يتم فى يوم من الأيام . وشغلت روما بعد ذلك عن مصر وسواها من ممالك الشرق الهيلينستى بما اشتعل من ثورات فى ولاياتها الغربية وما احتدم فى داخلها من صراع حزبى عنيف لم تكن مصر عاملا فيه[١] .

وأعقبت ذلك فترة طويلة فى تاريخ مصر البطامى ملأها النزاع الأسرى على العرش بين بطلميوس سوتر الثانى ووالدته كليوبتره الثالثة[٢]

وكيف كان الحال فى روما حينئذ ؟ لقد واجهت روما ثورة عاتية من جانب حلفائها الإيطاليين فى بداية القرن الأول قبل الميلاد ؛ وإذا كانت قد أفلحت فى إخماد هذه الثورة فى عام ٨٨ ق . م . ، إلا أنها اضطرت إلى إرضاء هؤلاء الحلفاء بالاستجابة إلى جميع مطالبهم . وفى نفس العام احتدم النزاع بين « ماريوس » و « صلا » على قيادة القوات الرومانية فى الشرق . وبيان ذلك أن فتوحات روما فى آسيا الصغرى وبحر إيجه وبلاد الإغريق وقعت فى يد ميثريداتيس إيوباتور ملك بونتس الذى استولى على آسيا الصغرى وجزيرة ديلوس وعلى بلاد الإغريق الجنوبية والوسطى . وتطلع كل من « ماريوس » و « صلا » إلى الظفر بقيادة القوات التى ينبغى إرسالها لإنقاذ هذه البقاع ، فاشتد الصراع بينهما ، وكتب النصر لصلا الذى تولى القيادة وأفلح فى رد ميثريداتيس على أعقابه ، ثم عقد معه صلحاً فى عام ٨٥ ق . م .[٣] ؛ وعاد « صلا » بعد ذلك إلى روما حيث قضى على أعدائه الذين استولوا على السلطة فى غيبته ، وأصبح دكتاتوراً فى عام ٨٢ ق . م .[٤]

---

(١) محمد عواد حسين ، المرجع السابق ص٢٠٢–٢٠٣ . M. Cary, History of Rome, p. 224.

(٢) انظر تفاصيل تاريخ هذه الفترة فى : محمد عواد حسين « النزاع الأسرى فى مصر البطلمية على عهد بطلميوس لاثيروس» حوليات كلية الآداب بجامعة إبراهيم ، العدد الثانى ١٩٥٣ ، ص ١١١–١٣٨

(٣) M. Cary, op. cit., pp. 319-35.

(٤) P. Jouguet, Histoire de La Nation Egyptienne, Vol. III, pp. 189-190.

« صلا » يتدخل فى مشاكل العرش المصرى :

أما فى مصر ، فقد اعتلت برنيكى الثالثة العرش منفردة بعد وفاة سوتر الثانى فى عام ٨٠ ق . م . ؛ فما كان من صلا وقد أصبح سيد العالم الرومانى إلا أن أرسل بطلميوس الإسكندر الثانى إلى عاصمة البطالمة وفرضه ملكاً على مصر . وتزوج هذا الملك من ابنة عمه برنيكى الثالثة ، ولكن الزواج لم يكن موفقاً ، فانتهى سريعاً بمقتل الزوجين معاً [١] .

وكانت هذه المأساة ذات أثر بعيد على الأسرة البطلمية كلها ، فقد ذهبت بآخر وريثين شرعيين فى البيت المالك ، ولم تعد هناك سوى كليوبتره سيلينى التى فقدت قوميتها — فى نظر شعب الإسكندرية — باعتلائها عرش سوريا . وكان على الإسكندريين أن يسرعوا بتنصيب ملك عليهم قبل أن يفرغ لهم « صلا » من مشاغله فى روما ويحاسبهم حساباً عسيراً على اعتدائهم على صنيعته بطلميوس الإسكندر الثانى . ووسط هذه الأزمة لجأ شعب الإسكندرية إلى اثنين من أبناء لاثيروس غير الشرعيين ، فأقام أحدهما ملكاً على مصر ، والآخر ملكاً على قبرص ، حتى لا يكون هناك مجال للصراع بينهما [٢] .

كيف اعتلى الزمار عرش مصر :

وقد حدثنا ششرون[٣] بأن هذين الابنين كانا فى سوريا عندما استدعيا فجأة لارتقاء عرشيهما ، فما هى الظروف التى أوجدتهما فى سوريا ؟ الواقع أن هذا السؤال لم يظفر حتى الآن بجواب قاطع : فقد كان معظم سوريا آنئذ

---

(١) محمد عواد حسين ، المرجع السابق . ص ١٣٧

(٢) لم تتحدث مصادرنا القديمة بشىء ما عن أصل المحظية التى أنجب منها بطلميوس لاثيروس هذين الابنين . ويعتقد « بفان » أنها لم تكن مصرية ، كما يحتمل أنها كانت راقصة من أسرة إغريقية محترمة .

(Cf. E. Bevan, A History of Egypt under the Ptolemaic Dynasty, p. 344.)

(٣) Cic. de Rege Alexandrino.

فى قبضة تيجرانس ملك أرمينيا[١] . ونحن نعرف أن هذا الملك كان حليفاً لميثريداتيس ملك بونتس الذى استولى على جزيرة كوس فى عام ٨٨ ق . م . ووضع يده على كنوز كليوبتره الثالثة وعلى حفيدها ابن بطلميوس الإسكندر الأول الذى أرسلته إلى هذه الجزيرة قبل أن تخوض غمار الحرب ضد ابنها لاثيروس فى سوريا[٢] . وليس بمستبعد أن يكون ميثريداتيس قد وضع يده أيضاً على ولدى لاثيروس فى نفس الوقت ، إذ وجدهما فى الجزيرة مع ابن بطلميوس الإسكندر الأول . وهذا رأى يتفق مع ما جاء فى « يوسف »[٣] اليهودى من أن كليوبتره الثالثة قد بعثت إلى هذه الجزيرة بكنوزها و «أحفادها» . وليس بمستبعد أيضاً أن يكون هذان الولدان قد عجزا عن الفرار إلى « صلا » كما فر بطلميوس الإسكندر الثانى ، فظلا فى بلاط بونتس حتى وفاة والدهما بطلميوس لاثيروس ، ثم اتخذا طريقهما إلى مصر وقبرص عن طريق سوريا ليرتقيا عرشيهما بناء على دعوة شعب الإسكندرية ، ووفقا للخطة التى رسمها معهما ميثريداتيس .

وإذا صح هذا التفسير[٤] فإنه يوائم ما جاء فى « أبيانوس[٥] » من أن كريمتى « ميثريداتيس » خطبتا لملكى مصر وقبرص وهما فى بونتس . وأغلب

---

(١) استطاع تيجرانس أن يتوغل فى سوريا الشمالية بعد أن أصبح سيد أرمينيا وبلاد ما بين النهرين وجوف كيليكيا . وقد اصطدم مع كليوبتره سيلينى أرمله بطلميوس لاثيروس وأنطيوخوس التاسع وأنطيوخوس الثامن ، ثم أنطيوخوس العاشر (انظر إبراهيم نصحى ، تاريخ مصر فى عصر البطالمة ، حـ ١ ، ص ١١٩) .

(٢) راجع التفاصيل فى : محمد عواد حسين ، المرجع السابق . ص ١٢٤

(٣) Joseph, XIII, 13, 1.

(٤) يصطدم هذا التفسير مع ما جاء فى ششرون من أن ابن لاثيروس الذى اعتلى عرش مصر كان صبياً (Puer) ، والمفهوم أن هذه الكلمة اللاتينية لا تطلق على من يجاوز الخامسة عشرة من عمره ، فكيف يكون عمر هذا الابن خمسة عشر عاماً فى سنة ٨٠ ق . م . إذا وافقنا أنه أرسل فى طفولته إلى جزيرة كوس سنة ١٠٢ ق. م. ؟ أحد أمرين : إما أن يكون قد أرسل إلى كوس بعد ذلك التاريخ ليقيم هناك مع ابن عمه ، وإما أن يكون ششرون قد استعمل كلمة (Puer) استعمالا غير عادى فأطلقها على شاب يانع جاوز العشرين من عمره .

(٥) App. Mith. II

الظن أن « ميثريداتيس » قد رتب هذه الخطبة المزدوجة مع ضيفيه بعد وفاة والدهما « لاثيروس » فى عام ٨٠ ق . م. ثم أرسلهما ليعتليا عرش مصر وقبرص وهو يأمل أن يبعث فى أثرهما بكريمتيه فتقع مملكة البطالمة فى قبضته دون عناء . وقد سلك الشابان طريق سوريا . ولكن هذه الآمال كلها تحطمت أمام سرعة « صلا » غريم « ميثريداتيس » ، إذ أرسل صنيعته بطلميوس الإسكندر الثانى فوصل إلى مصر وارتقى عرشها وتزوج من ملكتها قبل أن يبرح ولدا « لاثيروس » سوريا . غير أن الإسكندر الثانى لم يهنأ بعرشه الجديد أكثر من تسعة عشر يوما ثم قتل زوجته فغضب عليه الإسكندريون وأعدموه . ولما لم يجدوا أمامهم من يرتقى العرش الشاغر غير ابنى « لاثيروس » ، قرروا استدعاءهما ، وبالبحث عنهما وجدا فى سوريا .

وأيا كان الأمر ، فقد وصل ابن لاثيروس إلى مصر واعتلى عرشها بناء على رغبة الإسكندريين . ولكن زواجه من ابنة ميثريداتيس لم يتم [١] ، إذ تحدثنا وثيقة ديموطيقية ترجع إلى عام ٧٩ ق . م. [٢] — أى السنة التالية مباشرة لارتقائه العرش — بأن ملك مصر كان زوجاً لملكة تدعى كليوبتره تريفاينا ، وكان الزوجان يحملان معاً اللقب الإلهى « فيلوباتورس فيلادلفوى » وأغلب الظن أن هذه الزوجة كانت أختاً [٣] لزوجها بطلميوس الذى لقب فيما بعد « نيوس ديونيسيوس » أى « ديونيسيوس الجديد » ثم اشتهر « بالزمار »

---

(١) ليس من شك فى أن ميثريداتيس كان يرغب فى إتمام هذا الزواج ، ولكن بطلميوس الذى اعتلى عرش الاسكندرية بناء على دعوة من الاسكندريين لم يكن مستعداً لإغضابهم بزواج كهذا ، فإن شعب الاسكندرية كان يدرك تماماً خطر مصاهرة كهذه مع أكبر عدو لصلا ، وهم يسعون لإرضائه بعد أن قتلوا صنيعته بطلميوس الاسكندر الثانى .

(٢) Cf. E. Bevan, op. cit. p. 346 n. 1.

أما الوثيقة التى استند إليها لكلرك (op. cit. Vol. II, p. 124) فى حديثه عن هذا الزواج فترجع إلى عام ٧٨ .

(٣) هذا هو الاحتمال المرجح ، لأن هذه الملكة وصفت فى وثيقة عام ٧٩ الديموطيقية بكلمة « الأخت » . وهناك احتمالات أخرى : فإما أن تكون ابنة لسوتر الثانى من محظية أخرى ، وإما أن تكون ابنة لبطلميوس الاسكندر الأول . وعلى كل حال فنحن لا نعرف وجه الحق فى هذه المسألة .

(Auletes) لبراعته فى العزف على الناى [١]

نشأة المسألة المصرية :

على هذا النحو تصرف الإسكندريون تصرفاً عاجلا أنقذهم من تدخل روما ، واعتقدوا فى نفس الوقت أنهم قد أرضوا « صلا » بمنع زواج ملكهم الجديد من ابنة « ميثريداتيس » . ولكن اعتقادهم هذا لم يصدق إذ رفض دكتاتور روما الاعتراف بملك مصر ، ووقف السناتو من بطلميوس الزمار موقف التحدى ، فتحرجت العلاقات بين الدولتين وأصبحت دقيقة للغاية ، ونشأت فى السياسة الرومانية « مسألة مصرية »[٢] .

وصية بطلميوس الإسكندر الثانى :

وبدأت متاعب بطلميوس الزمار تأتى من ناحية روما فى صور شتى ، فقد أعلن مجلس الشيوخ أن لديه وصية كتبها ملك مصر السابق بطلميوس الإسكندر الثانى — الذى لم يدم حكمه أكثر من تسعة عشر يوماً ثم قتله الإسكندريون[٣] — يوصى فيها بمملكته للرومان . والواقع أن هذه الوصية كانت مثار جدل شديد بين المؤرخين ، فقد كثر الحديث عنها طوال عشرين عاماً دون أن يرى أحد نصها على الإطلاق[٤] .

ونحن لا نميل إلى الجدل فى مبدأ كتابة الوصية فى ذاته ، فقد عرف هذا المبدأ فى الشرق الهيلينستى منذ أخذت روما تبسط نفوذها على دوله ودويلاته وتتدخل فى شئون هذه وتلك تدخلا مباشراً . وقد حدثتنا المصادر القديمة عن الوصية التى كتبها « أتالوس الثالث » ملك « برغامون » فى عام ١٣٣ ق . م . موصياً فيها بمملكته للرومان بعد وفاته[٥] ، كما حدثتنا عن وصية أخرى مماثلة

(١) C.A.H. Vol. IX., p. 388.

(٢) Ibid. p. 389.

(٣) App. B. Civ. 1, 102.

(٤) B. - Leclercq, op. cit. Vol. II, p. 125.

(٥) O.G.I.S. No. 338.

« لبطلميوس آبيون » ملك برقة[١] . وإذاً فليس بمستبعد أن يكون بطلميوس الإسكندر الثانى قد أوصى بمصر للرومان ، ولا سيما أنه كان صنيعة « صلا » ، وبفضله ارتقى عرش مصر ، وفرض على الإسكندريين فرضاً دون استشارتهم .

ولكن المسألة الشائكة هى الوقت الذى حررت فيه وصية بطلميوس الإسكندر الثانى والدافع إليها . فهل كتبها هذا الملك وهو فى روما قبل أن يعتلى عرش مصر ؟ وهل حررها بناء على طلب « صلا » نفسه كثمن لارتقائه العرش ، أم أنه كتبها فى مصر خلال حكمه القصير الذى لم يدم إلا أياماً ؟

أما الاحتمال الأول فيرجحه المؤرخ الفرنسى « بوشيه لكلرك[٢] » لأنه يعتقد أن الفترة التى تبوأ فيها بطلميوس الإسكندر الثانى عرش مصر كانت قصيرة جداً بحيث لا تتسع للتفكير فى مثل هذه الوصية وكتابتها . ويؤيد لكلرك فى وجهة نظره هذه المؤرخ الإنجليزى « بفان »[٣] . أما « نصحى »[٤] فيلتزم جانب التحفظ بالنسبة لوجود الوصية أصلا ، ولكنه لا يرى بأساً فى الأخذ برأى « لكلرك » فى حالة وجود الوصية فعلا .

وأما الاحتمال الثانى فهو الذى نرجحه نحن لعدة أسباب : أولها أن مجلس الشيوخ الرومانى لم يتخذ أية خطوة إيجابية لتنفيذ هذه الوصية التى لوح بها ، وكذلك كان الحال بالنسبة للدكتاتور الرومانى « صلا » ، فما الحكمة إذاً فى أن يطلب « صلا » من بطلميوس الإسكندر الثانى كتابة الوصية ثم لا يقوم هو أو مجلس الشيوخ بعمل ما فى سبيل وضعها موضع التنفيذ بعد مقتل صاحبها[٤] ؟ قد يقول قائل إن مجلس الشيوخ خشى تنفيذ الوصية حتى لا يتضخم نفوذ صلا ، أو أنه خشى أن تثار مشكلة كتلك التى أثيرت بين الترابنة ومجلس الشيوخ عند

---

(١) Livy, Epit. LXX; Justin, XXXIX, 5, 2.; App. B. Civ. I, 111; Mith. 121.
وقد كتبت هذه الوصية فى عام ٩٦ ق . م . أى قبل وصية الإسكندر الثانى بستة عشر عاماً .

(٢) B. - Leclercq, op. cit. Vol. II., pp. 120-125.

(٣) إبراهيم نصحى ، المرجع السابق ، ج ١ ، ص ١٢١ . E. Bevan, op. cit. p. 350, No. 1

(٤) كذلك يقرر أصحاب الرأى الأول أنفسهم ، راجع إبراهيم نصحى ، المرجع السابق ، ج ١ ، ص ١٢٥ . وراجع أيضاً : B. - Leclercq, op. cit. Vol. II., p. 125.

تنفيذ وصية أتالوس الثالث التى أشرنا إليها[١] . ولكن الرد على ذلك يسير ، وهو أن « صلا » كان عندئذ دكتاتور روما وسيد العالم الرومانى الذي لا ينازعه منازع ، ولو أنه رغب حقاً فى تنفيذ هذه الوصية لما وجد صعوبة فى ذلك ، ولما استطاع مجلس الشيوخ معارضته أو الوقوف فى وجهه ، ولا سيما أن « صلا » كان يناصر هذا المجلس ويعمل جاهداً على رد نفوذه القديم إليه .

والسبب الثانى أن الحجة التى يتذرع بها أصحاب الرأى الأول من أن فترة حكم بطلميوس الإسكندر الثانى فى مصر لم تتعد بضعة عشر يوماً لاتتسع للتفكير فى مثل هذه الوصية وكتابتها ، هذه الحجة نراها واهية : فكتابة وصية كهذه أمر لا يحتاج إلى تردد طويل فى مثل الظروف التى اكتنفت الإسكندر الثانى ، فهذا الملك يشعر ببغض الإسكندريين له ، ويدرك تماماً أنه فرض عليهم فرضاً ، ثم هو بعد ذلك قد قتل ملكتهم المحبوبة التى اتخذها زوجة له ، وأحس بالغضب الجارف الذى لابد أن يجتاح نفوس الإسكندريين ويدفعهم إلى الانتقام منه ، فهل نستبعد أن يكون قد كتب هذه الوصية تزلفاً إلى الرومان سادته ، ثم أسرع فبعث بها إليهم حتى يتخذوا العدة لإنقاذه مما ينتظره على يد شعب الإسكندرية الهائج ؟ هذا هو الاحتمال الذى نراه مقبولا ولا سيما أن المثل كان قد ضرب لبطلميوس الإسكندر الثانى من قبل على يد سلفه بطلميوس الصغير (إيوارجيتيس الثانى) الذى أوصى بمملكته (برقه) للرومان فى عام ١٥٥ ق . م. تزلفاً للرومان كى يحمسهم للوقوف فى صفه وهو يناضل أخاه الأكبر بطلميوس فيلوميتور[٢]

وأيا كان الأمر ، فقد كان ظهور هذه الوصية والتحدث عنها فى روما مثار إزعاج شديد لملك مصر الذى أحس تماماً أن رضاء شعب الإسكندرية عنه لن يغنيه شيئاً ، وأنه لن يستقر على عرشه إلا إذا رضيت عنه روما أولا وقبل كل شئ

---

(١) E. Volterra, Le Testament de Ptolemée Alex. II. Roi d'Egypte, Bull. Inst. d'Egypte, T. XXI, p. 116.

(٢) محمد عواد حسين ، شئون مصر الداخلية وسياستها الخارجية على عهد بطلميوس إيوارجيتيس الثانى ص ٢٩٦٠ وما بعدها .

ومن ثم كان لابد من السعى إلى هذا الرضاء والظفر به بأى ثمن . غير أن روما — لحسن حظ بطلميوس الزمار — لم تقدم على تنفيذ هذه الوصية لأن الحزب الأرستقراطى صاحب النفوذ والسلطان عندئذ كان يرى أن الوقت المناسب لم يحن بعد لضم مصر إلى أملاك الجمهورية الرومانية ، فقد كان « صلا » مشغولا بوضع إصلاحاته الدستورية الداخلية[١] ، وكانت عملية ضم مصر إلى الأملاك الرومانية رغم أنف شعبها تتطلب مجهوداً عسكرياً يبدو أن روما لم تكن على استعداد لبذله فى تلك الآونة وهى بعد لم تسترد أنفاسها من وصب الحروب الأهلية . لهذا اكتفى مجلس الشيوخ بإرسال بعض السفراء إلى صور للاستيلاء على أموال الملك بطلميوس الإسكندر الثانى صاحب الوصية[٢] .

روما لا تعترف بالزمار :

هكذا ترك بطلميوس الزمار ملكاً على مصر دون أن تعترف به روما رسمياً وهى تدرك مقدماً مدى ما سوف يحدثه موقفها هذا من أثر فى مسلك ملك مصر . ولقد صدق ظنها ، فإذا ببطلميوس الزمار يقضى حياته كلها مدافعاً عن نفسه وعرشه أمام مجلس الشيوخ الرومانى ، وإذا به يرهق شعبه فى سبيل الحصول على الأموال اللازمة لإشباع نهم المدافعين عنه فى روما ، وكان من صالح روما أن تتركه هكذا تحت رحمتها ، قلقاً على تاجه ، مضحياً بكل شىء فى سبيل الحصول على اعترافها . . .

مرت الأعوام الأربعة الأولى من حكم « بطلميوس نيوس ديونيسيوس » لا ينقصها القلق والاضطراب ، ثم حدث فى عام ٧٥ ق . م . ما أدى إلى زيادة قلق الملك واضطرابه ، ذلك أن مسلك روما تجاهه شجع « كليوبتره سيلينى »

---

(١) M. Cary, op. cit. p. 338.

(٢) E. Volterra, op. cit. p. 115; B.-Leclercq, op. cit. Vol. II, p. 125.
ويقال أن هذه الأموال هى التى أعطاها « صلا » لصنيعته بطلميوس الإسكندر الثانى عندما أوفده لاعتلاء عرش مصر .

على أن تطالب بعرش مصر وسوريا لولديها الصغيرين [١] ، فأرسلتهما إلى روما والأمل يحدوها فى أن يؤيد السناتو قضيتها ما دام لم يعترف « ببطلميوس الزمار » ملكاً على مصر ، وما دام الشك قد بدأ يساور روما من ناحية « تيجرانس » ملك سوريا الذى صاهر غريمها الأكبر « ميثريداتيس »

ولدا سيليني فى روما :

ووصل الأميران الشابان إلى عاصمة الجمهورية الرومانية وقد زودتهما سيليني بما يكفيهما من أموال للظهور بالمظهر اللائق فى روما ، ولتقديم الهدايا للآلهة والرشاوى لذوى النفوذ والجاه من أعضاء مجلس الشيوخ [٢]

ولم يكن شيوخ روما على استعداد كاف للاستماع إلى قضية ولدى « كليوبتره سيليني » ومناقشتها ، ولهذا لم تعرض شكواهما ضد تيجرانس على السناتو بحجة أن الوقت لا يسمح بمناقشة هذا الموضوع [٣] . وأما عن مصر ، فقد كان يتربع على عرشها ملك ضعيف ، وليس من مصلحة روما فى شيء أن تقصيه لتقيم بدله واحداً من ولدى سيليني صاحبى الحق الشرعى فى هذا العرش ، فيستمد من حقه هذا قوة قد تغريه بالوقوف فى وجهها فيما بعد . وليس من مصلحتها أيضاً أن تجمع عرشى مصر وسوريا فى يد واحدة . ومن أجل هذا أجل السناتو النظر فى دعوى الأخوين ضد بطلميوس الزمار وفى نيته ألا ينظرها على الإطلاق . وبقى الأمر هكذا معلقاً طيلة عامين كاملين حتى عيل صبر ولدى سيليني

---

(١) كانت كليوبتره سيليني آخر نسل شرعى للبطالمة بقى على قيد الحياة ، فهى ابنة بطلميوس إيوارجتيس الثانى ، وقد تزوجت أولا من أخيها بطلميوس لاثيروس ، ثم من ثلاثة من الملوك السليوكيين ، ولم يبق لها من كل هذه الزيجات إلا ولدان يرجح أنهما كانا من آخر أزواجها ، انطيوخوس العاشر (بيوس) .

(٢) كان ولدا سيليني فى كيلكيا التى لجأت إليها والدتهما بعد أن وضع تيجرانس يده على سوريا فى عام ٨٣ ق . م . (Cf. Justin, XL, 2, 3.)

(٣) Cf. Cic. In Verr., IV., 27.

والواقع أن أعضاء مجلس الشيوخ الرومانى لم يكن يهمهم البحث فى الحقوق المشروعة لولدى سيليني فى العرش السورى فى تلك الآونة الدقيقة التى شغل خلالها جيشان من الجيوش الرومانية فى محاربة سرتوريوس (Sertorius) والتى قد يستغلها ميثريداتيس لمعاودة القتال ضد روما .

وأيقنا ألا جدوى من الانتظار فغادرا روما فى عام ٧٣ ق . م .[١] ويحدثنا شيشرون بأن أحدهما – وهو المدعو أنطيوخوس – قد عرج فى طريق عودته على جزيرة صقلية حيث نهبه حاكمها الرومانى ڤرس "Verres".[٢]

وكيف كان أثر هذه الزيارة على بطلميوس الزمار ؟ ليس من شك فى أنها سببت له إزعاجاً شديداً برغم فشلها ! فهو قد خلص حقاً من ولدى سيليني ، ولكن مجرد ذهابهما إلى روما قد فتح عليه باباً كان مغلقاً . فهل هناك ما يمنع رجال السناتو من التفكير فى إراحة أنفسهم من هذه المشكلة برمتها فيعملون على ضم مصر نهائياً إلى الأملاك الرومانية ؟ هذا محتمل ، ولعل الخطوة التى اتخذوها حينئذ كانت دليلا واضحاً على تفكيرهم هذا ، فقد قرروا فى عام ٧٤ ق . م . ضم برقة إلى روما وتحويلها إلى ولاية من ولاياتهم[٣] . وإذا كانوا قد اتخذوا هذه الخطوة بعد انقضاء اثنين وعشرين عاماً على التاريخ الذى كتب فيه « بطلميوس آبيون » وصية بتوريث الرومان مملكته « برقة » عقب وفاته[٤] ، فما الذى يمنعهم من وضع وصية بطلميوس الإسكندر الثانى موضع التنفيذ أيضاً ؟ هذا أمر غير مستبعد ، بل لعلهم لم ينفذوا وصية « أبيون » بعد مرور هذه الأعوام الطويلة إلا لتكون مقدمة لتنفيذ وصية بطلميوس الإسكندر الثانى ، ولا سيما أن « نيكوميديس » الثالث ملك « بيثينيا » كان قد أوصى فى

---

(١) كانت روما آنئذ مشغولة بالحرب فى ثلاث جبهات مختلفة : حرب ضد سرتوريوس (Sertorius) وأخرى ضد ميثريداتيس ، وثالثه ضد سبارتاكوس . وقد استمرت الحرب ضد الأول من عام ٨٧ إلى عام ٧٢ ق . م ، بينما عاود ميثريداتيس قتاله ضد الرومان فى عام ٧٤ ق . م أما سبارتاكوس فقد حارب الرومان فى إيطاليا من عام ٧٣ إلى عام ٧١ ق . م . ويذهب (ماهافى) فى تاريخه عن البطالمة (Mahaffy's Hist. p. 227) . إلى أن الأميرين لم يذهبا إلى روما إلا فى عام ٧٢ ق . م ، ولسنا نرى سبباً مقبولا لذلك الفرض

(٢) Cf. Cic., In Verr., 27-30.

(٣) استنبط هذا التاريخ من المقارنات التاريخية التى جاءت فى « أبيانوس » .

(Cf. App., B. Civ., I, 111.)

(٤) أوصى بطلميوس آبيون بمملكته « برقه » للرومان فى عام ٩٦ ق . م .

(Cf. Livy, Epit., LXX; Justin, XXXIX, 5, 2; App., Loc. Cit.; Mithr., 121.)

هذا العام نفسه (٧٤ ق . م) بمملكته للشعب الرومانى ، فحولت إلى ولاية رومانية فوراً[١] . .

الظروف فى روما :

هكذا كانت الأفكار التى أدارت رأس بطلميوس الزمار وأقضت مضجعه فى تلك الآونة . وإذا كانت الظروف قد حالت دون ضم مصر إلى روما عقب رحيل ابنى كليوبتره سيليني إلى سوريا ، فليس من ريب فى أن بطلميوس الزمار قد أدرك تماماً أنه لابد من دفع ثمن باهظ لأولى الأمر فى روما حتى يكفوا عن إزعاجه . والواقع أن الأحوال فى العاصمة الرومانية كانت عندئذ غير مواتية لضم مصر : فقد شاعت الرشوة واستشرى الفساد ، ولم يكن النبلاء — وهم القابضون على أزمة الحكم — يستهدفون غير مصالحهم الذاتية ، وكانت هذه المصالح تقتضيهم ترك المسألة المصرية معلقة ، ذلك بأنهم كانوا على يقين من أن ملك مصر لن يدخر وسعاً للظفر باعترافهم به ملكاً على مصر ، وهو فى سبيل هذه الغاية لن يتوانى عن تقديم كل ما يستطيع تقديمه لهؤلاء النبلاء الذين خربت ذممهم بحيث أصبحت تتسع لكل شىء . ولا شك أن اشتغال الزمار بهذه الأمور سوف يصرفه تماماً عن الاهتمام بشئون مملكته ، وسوف تضعف مصر تبعاً لذلك فتقع لقمة سائغة فى أيدى الرومان متى سمحت الظروف . هذا فضلا عن أن تكالب ملك مصر على جمع الرشاوى لنبلاء روما قد اضطره إلى إرهاق شعبه بمزيد من الضرائب والالتزامات المالية ، فكانت النتيجة أن غضب عليه هذا الشعب بينما احتقره الرومان أنفسهم ، وهكذا خسر بطلميوس الزمار حب المصريين واحترام الرومان فى وقت واحد .

* * *

ومضت الأحداث فى روما سراعاً خلال الأعوام القليلة التى أعقبت ضم برقة ، فإذا بالحرب الأهلية تشتعل مرة أخرى ، وإذا بالمشكلة المصرية تثار من

---

(١) Cf. App., loc. cit.

جديد . وبيان ذلك أن الحرب التى أعلنها النبلاء ضد الزعيم الشعبي سرتوريوس فى أسبانيا (٧١ — ٧٠ ق ، م .) . والفوضى الشاملة التى عمت أرجاء إيطاليا بعد وفاة « صلا » ، والجهود الشاقة التى بذلت للقضاء على تمرد العبيد ، كل أولئك انتهى بظهور زعماء جدد كان على رأسهم « كراسوس » و « بومبى » . وقد أفلح هذان الرجلان فى تولى منصب القنصلية (عام ٧٠ . ق.م) برغم معارضة السناتو . وفى عام ٦٧ ق.م . زاد نفوذ « بومبى » زيادة هائلة عندما منح سلطة غير عادية للقضاء على القراصنة الذين كانوا يهددون مئونة روما ، ثم فى عام ٦٦ ق.م. عندما كلف قيادة الحرب ضد ميثريداتيس (١) .

مصر فى حلبة الصراع الحزبى بروما :

ويبدو أن الغيرة والخوف من بومبى — بعد اتساع سلطانه على هذا النحو — قد أخذا سبيلهما إلى نفس « كراسوس » الذى خشى أن يعمل زميله « بومبى » على إقامة د يكتاتورية عسكرية كتلك التى أقامها « صلا » من قبل . لهذا بعث كراسوس الحياة فى حزب « ماريوس » القديم . وانضم إلى هذا الحزب رجل قوى قدر له أن يلعب دوراً خطيراً فى تاريخ بلاده ، هو « يوليوس قيصر » وفى عام ٦٥ ق.م. تولى كراسوس منصب الكنسورية ، بينما تولى قيصر منصب الأيديلية ، وعقدا العزم معاً على القيام بعمل ضخم يعلى مكانتهما الشعبية ، ويجتذب إليهما الجماهير ، ويضمن لهما نفوذاً كبيراً فى الدولة يناهضان به نفوذ بومبى (٢) .

المحاولة الديموقراطية الأولى لضم مصر :

وانتهى التفكير بالزعيمين إلى تقديم مشروع يقضى بضم مصر إلى أملاك الجمهورية الرومانية . غير أنهما لم يعلنا ذلك فى صراحة حتى لا يثيرا عليهما مجلس الشيوخ وطبقة النبلاء . ولهذا تقدم كراسوس ، وهو يعرض الحالة المالية

---

(١) Cf. C.A.H., IX., pp. 313-349; M. Cary, op. cit. pp. 363-70.

(٢) P. Jouguet, H.N.E. Vol. III, p. 192; C.A.H. op. cit. pp. 475 ff.

للجمهورية ، مطالباً بفرض جزية على مصر لمواجهة النفقات الباهظة التي تتكبدها روما في حربها ضد ميثريداتيس[١] . ولما كان مفهوماً أن الدولة الصديقة لا تدفع جزية للجمهورية ، فقد كان كراسوس يطلب في واقع الأمر تحويل مصر إلى ولاية رومانية . وفي نفس الوقت أوحى قيصر إلى بعض نقباء العامة بتقديم اقتراح بقانون يقضي بمنح قيصر سلطات استثنائية ليقوم بتنظيم ولاية مصر الرومانية[٢] . ولم تكن هناك صعوبة في تبرير هذه الخطة التي رسمها كراسوس مع قيصر لضم مصر ؛ فبطلميوس الزمار لم يكن وريثاً شرعياً للتاج المصري ، وهناك وصية تركها سلفه بطلميوس الإسكندر الثاني أوصى فيها بمصر للشعب الروماني ، وروما آنئذ في مسيس الحاجة لموارد مصر الغنية ولكنوز البطالمة أغنى ملوك البحر الأبيض المتوسط على الإطلاق .

ولكن المسألة لم تكن ثراء مصر وحاجة روما الملحة لهذا الثراء ، إنما كانت مسألة الصراع الحزبي العنيف داخل روما : فحزب العامة ، وعلى رأسه كراسوس وبومبي ، يريد ضم مصر لتصبح في قبضته دولة غنية يناوئ بها بومبي وأطماعه ، ولو قد له الظفر بهذه الدولة لكان في ذلك القضاء المبرم على النبلاء وحزبهم . والنبلاء من أجل هذا يخشون العامة ويحرصون على حرمانهم من موارد مصر الهائلة .

شيشرون في الميدان:

ووقف شيشرون — صديق بومبي — في الميدان ، فجند فصاحته لمعارضة المشروع ، لا حرصاً على حرية مصر واستقلالها ، وإنما تنفيذاً لأهداف حزبية خالصة . واستطاع النبلاء إقناع زميل كراسوس — الكنسور « لوتاتيوس

---

(١) Cf. Plut., Crass., 13.

(٢) يذهب سويتونيوس (Suet., Caes., XI) إلى أن اقتراح ضم مصر كان من وضع يوليوس قيصر لا كراسوس . ولكن ما جاء في شيشرون (De Rege Alexandrino) ، وفي بلوتارك (Crass., 13) ، يقطع بأن صاحب الاقتراح كان كراسوس . وأياً كان الأمر ، فالواضح أن الاتفاق بين الرجلين على ضم مصر للأسباب التي ذكرناها كان تاماً .

كاتولوس » — بالوقوف من زميله موقف المعارضة ، وانتهى النزاع بين الزميلين إلى استقالة كل منهما من منصبه دون أداء شيء من مهامه . ولم يختلف الأمر عن ذلك بالنسبة للترابنة الذين كانوا أداة فى يد قيصر ، فقد وقف زملاؤهم يعارضونهم بوحى من النبلاء . وهكذا فشلت خطة العامة ، وأنقذ بطلميوس الزمار من أزمة خطيرة كادت تفقده تاجه ، والفضل يرجع أولا وأخيراً إلى التطاحن الحزبى فى روما (١) .

وإذا كان ملك مصر قد خلص على هذا النحو من تلك الأزمة ، إلا أنه كان يدرك تماماً مدى الخطر المقبل عليه ؛ فإن الحزب الديموقراطى كان يعتبره ملكاً غير شرعى ويسعى إلى خلعه ، ولم يدافع عنه الارستقراطيون إلا تمشياً مع مصالحهم الخاصة ، أى أن ظروف النزاع الحزبى فى روما هى وحدها التى أوقفت رجال الحزب الارستقراطى فى موقف الدفاع عن ملك مصر .

المحاولة الثانية :

وبعد ذلك بعامين اثنين ، وضع قيصر خطة جديدة للانتقام من الهزيمة السياسية التى أنزلها الحزب الأرستقراطى بالديموقراطيين ، ذلك أنه أوحى إلى التربيون « سرڤيليوس رولوس » (Servilius Rullus) — الذى تولى منصبه فى ديسمبر عام ٦٤ ق.م. — بتقديم مشروع قانون زراعى يقضى بإنشاء مستعمرات لعامة الرومان فى الأراضى الصالحة للزراعة داخل إيطاليا ولا سيما فى إقليم كابوا ، فإذا لم تكف هذه الأراضى لسد حاجة العامة ، فلا مانع من شراء مساحات أخرى لنفس الغرض ، على أن يؤخذ المال اللازم للشراء من ثمن بيع جزء من الأملاك الرومانية التى تقع خارج إيطاليا ، والتى اكتسبت منذ قنصلية « صلا » و « بومبى » (عام ٨٨ ق.م.) ، وتضمن مشروع القانون المقدم ، النص على تأليف لجنة من عشرة رجال ، يمنح أعضاؤها سلطة مطلقة لتنفيذه فى خلال خمسة أعوام ، وكان معنى ذلك أن هؤلاء الرجال تمتعوا بهذه

(١) B. - Leclercq, op. cit. Vol. II, pp. 128-129.

السلطة فى كل الأراضى التى تمتلكها الجمهورية حول حوض البحر المتوسط .

لقد كان مشروع القانون بريئاً فى مظهره ، فهو يستهدف الرخاء الاقتصادى لعامة الرومان ، ويخفف حدة الأزمة الاقتصادية التى يرزحون تحتها . ولكن قيصر عندما أوحى بهذا المشروع لنقيب العامة ، كان يستهدف غرضاً حزبياً آخر ، هو تقوية حزب العامة لمواجهة بومبى عند عودته إلى روما ، كما كان — دون شك — يقصد الاستيلاء على مصر باعتبارها من الأملاك الرومانية خارج إيطاليا .

شيشرون يحبط المحاولة :

ولم تكن هذه الأهداف البعيدة لتخفى على شيشرون ، فما كاد يتولى منصب القنصلية فى عام ٦٣ ق.م. حتى عبأ نفوذه السياسى وفصاحته الخطابية لمعارضة هذا المشروع الخطير ، فألقى فى مجلس السناتو خطاباً قوياً ضد المشروع كله فضح فيه نوايا الديموقراطيين الحقيقية ، وقد جاء فيه : « الواقع أن هيئة العشرة سوف تتذرع بما يقال من أن مصر قد أصبحت ملكاً للشعب الرومانى بناء على وصية الإسكندر ، وأنكم — بناء على ذلك — تسلمون الإسكندرية لنفس الرجال الذين يخفون أهدافهم الحقيقية ، بينما أبيتم عليهم ذلك وهم يكافحون علناً فى سبيل الظفر بها . »(١) ولم تكد تمضى أيام قليلة حتى أعلن شيشرون للشعب الرومانى أسماء الأقطار التى يمكن أن تدخل فى نطاق مشروع « رولوس » وقال إن من بينها ممالك برمتها مثل بيثينيا و « الإسكندرية ومصر التى أحكموا إخفاءها وإسدال الستار عليها » ، ثم بين الخطورة القصوى فى المسألة المصرية قائلا إنها لا تتعلق بالبت فيها على أى وجه من الوجوه ، وإنما تمتد إلى مجرد عرضها للمناقشة(٢) . ووفق شيشرون فى مهاجمة المشروع حتى اضطر صاحبه إلى سحبه ، وهكذا خلص الزمار من تلك الأزمة الجديدة التى كانت تهدد عرشه .

ونحن نستطيع أن نخرج من خطاب شيشرون الذى هاجم به مشروع « رولوس » بأن الرومان قد انقسموا إلى فريقين إزاء المسألة المصرية : فريق

---

(١) Cic., Leg. Agr., I, 1.

(٢) Ibid., loc. cit.

يرى ضم مصر إلى أملاك الجمهورية الرومانية ضماً نهائياً وما يترتب على ذلك من خلع ملكها وتعيين حاكم رومانى لها ، وفريق آخر يكتفى بمجرد وضعها تحت الحماية الرومانية مع إبقاء ملكها البطلمى فوق عرشه معترفاً بهذه الحماية . ولم يكن هناك بعد ذلك مجال للاعتراف الرسمى ببطلميوس الزمار واعتباره ملكاً شرعياً لمصر . لقد كانت المسألة — كما ذكرنا — مسألة الصراع الحزبى داخل روما بين الأرستقراطيين والديموقراطيين قبل أن تكون أى شىء آخر .

ويبدو أن الرومان قد ظنوا أنهم وحدهم أصحاب الحق المطلق فى تقرير مصير مصر كمملكة ، فأسقطوا من حسابهم عاملا جوهرياً فى المسألة كلها ، ذلك هو الشعب الإسكندرى نفسه ، هذا الشعب الأبى الذى لا يمكن أن يوافق على الخضوع لملك ليس إلا عبداً لمشيئة سادته الرومان . ولقد أدرك الإسكندريون بموقف ملكهم من روما ، أنهم ومدينتهم أصبحوا تحت رحمة قرار يصدره مجلس الشيوخ الرومانى أو يوافق عليه شعب روما . وكان طبيعياً أن يملأهم هذا الإدراك غضباً ، وأن ينصب غضبهم كله على رأس ملكهم الذى رأوه لا يعرف رداً على الإهانات التى توجه إليه ، غير الهدايا والأموال يغدقها فى كرم وسخاء على من أهانوه . وكان موقف الزمار من شعبه غريباً غاية الغرابة ، فبدلا من أن يستعين بالإسكندريين على الرومان الذين يعرف حقيقة موقفهم منه ، إذا به يستعدى الرومان عليهم ، ويطلب عون هؤلاء الأجانب ضد رعيته ، وكأنما كان يعتقد أن مساعدة الرومان له ، تحمل فى طياتها اعترافاً ضمنياً بحقه الشرعى فى الملك .

الزمار يستعدى بومبى على شعبه :

وكانت الخطب التى ألقيت فى روما (عام ٦٣ ق.م.) حول مشروع رولوس — محبذة له أو معارضة — كفيلة بإثارة شعب الإسكندرية الذى وقف منه ملكه موقفاً مزرياً حقاً ، فهاهم أولاء يرونه موضع التحقير فى روما ، ثم لا يحرك فيه ذلك إلا نوازع الذلة والخنوع لمحتقريه ، فإذا به يرسل معونته المادية والعسكرية لبومبى ، ويطلب إليه زيارة الإسكندرية لتأديب شعبها الثائر ! !

وبيان ذلك أن بومبى كان يعمل على فتح فلسطين فى عام ٦٣ ق. م.[١] ، فتطوع الزمار لمدم بمبالغ طائلة من الأموال المصرية ، مع ثمانية آلاف من الفرسان ليستعين بهم فى مهمته . لقد كانت هذه خيانة سافرة من ملك مصر ، فبدلا من أن يعمل على استرداد جوف سوريا الذى فعل أسلافه ما فعلوا فى سبيل الاحتفاظ به ضمن أملاكهم ، نراه الآن يعاون الرومان على ضمه إلى أملاكهم . ويغضب الإسكندريون لهذه الخيانة التى اقترفها ملكهم ، ويحس الزمار بالخطر يحدق به فيسرع بطلب العون من بومبى ، ويرسل إليه الهدايا والأموال ، ويدعوه لتأديب الأسكندريين[٢] . ولكن بومبى كان حصيفاً فقبل الهدايا واعتذر من زيارة الإسكندرية لأنه يعلم أى إشكال سياسى يثيره على نفسه بخطوة كهذه ، وهو يعرف تماماً مدى التطاحن الحزبى فى روما من أجل مصر ، ثم إنه كان يربأ بنفسه أن يؤدى للزمار مهمة الشرطى فى الإسكندرية ، وهو الذى دان له الشرق كله بعد انتصاراته العظيمة على ميثريداتيس وتيجرانس .

وكيف كان موقف شعب الإسكندرية من ملكه الخائن ؟ كانت الثورة تعتمل فى صدره ، ويود مخلصاً لو خلى بينه وبين الزمار ليقذف به بعيداً عن العرش الذى برهن على أنه غير جدير به . ولكن كيف يتاح له أن يعبر عن ثورته المكبوتة تعبيراً عملياً وهو يعرف سلفاً أن النتيجة الوحيدة لن تكون غير ضم مصر إلى أملاك الإمبراطورية الرومانية . لهذا آثر الإسكندريون الصبر حتى تتاح لهم فرصة أخرى . ولقد حدثنا ديودوروس الصقلى — الذى زار مصر

---

(١) كان بومبى يقود جيوشه منتصراً فى الشرق حينئذ ، فهزم ميثريداتيس (٦٦ ق . م .) واضطره إلى الفرار إلى القرم حيث قتله ابنه الغادر فارناكيس ، وبذلك خضعت بونتس لروما . وفى عام ٦٥ أكره تيجرانس على الارتداد إلى أرمينيا وقضى على كل سلطان له فى سوريا وآسيا الصغرى ، ثم استطاع فى العام التالى (٦٤ ق . م .) أن يحول سوريا إلى ولاية رومانية ، وكانت كليوبتره سيلينى عندئذ قد فارقت الحياة إذ قتلها تيجرانس فى عام ٦٩ ق . م . بعد أن أسرها فى مدينة سليوكيا على الفرات . وهكذا انتهت سلالة البطالمة الشرعية اللهم إلا إذا اعتبرناها مستمرة فى أبناء وأحفاد كليوبتره سيلينى وكليوبتره تريفاينا ، وهم فى الواقع أمراء سليوكيون (Cf. E. Bevan, op. cit. p. 351)

(٢) App. Mith., 114.

فى تلك الآونة — عن مبلغ حفاوة الإسكندريين بالزوار الإيطاليين ، وقال إن هذه الحفاوة لم تكن خالصة لوجه الصداقة ، وإنما كان يدفعهم إليها خوفهم من إثارة الرومان عليهم[١] .

هكذا كان حال الزمار : يجلس قلقاً فوق عرشه لا يستقر له قرار ؛ فلا هو يستطيع الاطمئنان إلى الرومان برغم ما بذل لهم من أموال وهدايا ، ولا هو يأمن جانب الشعب الإسكندرى الذى يطوى أفراده صدورهم على كراهية عميقة ومقت شديد لهذا الملك . ولم يكن أمام الزمار بعد ذلك إلا أن يعتمد على عيونه يبثهم فى روما لتأتيه عن طريقهم دقائق الموقف الحزبى فى روما بعد أن أصبح مصيره مرتبطاً بهذا الموقف كل الارتباط .

وفى عام ٦٠ ق.م. تمت انتخابات القنصلية فى روما ، فكانت نذيراً لملك مصر بشر مستطير ، إذ ظفر بالمنصب يوليوس قيصر الذى حاول انتزاع مصر من ملكها مرتين قبل ذلك . وكان يعاون قيصر فى قنصليته كل من كراسوس وبومبى[٢] ، وموقف أولهما من المسألة المصرية معروف . ولهذا توقع بطلميوس الزمار أن يبدأ قيصر عمله فى منصبه الجديد بإعلان ضم مصر إلى روما . ولكن قيصر كان أبعد من ذلك نظراً ، فهو فى حاجة ماسة إلى المال ، وملك مصر بقرة حلوب ، ولن يتوانى عن افتداء عرشه بأى مبلغ من المال مهما عظم . لهذا أرسل إليه قيصر مطالباً — باسمه واسم بومبى — بمبلغ ستة آلاف تالنتا ثمناً لتسوية المشكلة المصرية[٣] .

---

(١) Diod. Sic. I, 83.

(٢) عندما عاد بومبى من الشرق ظافراً كان ينتظر أن يؤيده السناتو فيوافق على النظم التى سنها للمناطق التى فتحها ، ولكن المجلس — خوفاً من اتساع نفوذ هذا القائد — أراد أن يكبح جماحه فلم يمنحه تأييده . وكانت النتيجة المباشرة لذلك المسلك الغريب ، أن ارتمى بومبى فى أحضان حزب العامة ، ومن ثم تألفت الحكومة الثلاثية الأولى من قيصر وكراسوس وبومبى ، وانتخب قيصر قنصلا لعام ٥٩ ق . م . (Cf. M. Cary, op. cit. pp. 374 ff.) .

(٣) Suet., Caes., 54

ويبدو أن هذا المبلغ كان عملة فضية وإن لم يذكر سويتونيوس ذلك صراحة ، إذ المفروض أن التالنتات « المصرية » كانت فضية . وهذا المبلغ يوازى — على وجه التقريب — نصف

روما تعترف بالزمار :

وأسرع بطلميوس فأجاب الطلب ، وظفر آخر الأمر بما حاول الظفر به دون جدوى أكثر من عشرين عاماً ، فقد حصل له قيصر على اعتراف روما الرسمي ، ولم يأت هذا الاعتراف فى صورة قرار من مجلس الشيوخ يكون عرضة للنقض فى أى وقت ، وإنما أتى بموجب قانون خاص « بملك الإسكندرية » « De Rege Alexandrino » جاء فيه أنه نظراً للخدمات التى أداها بطلميوس لجيوش روما فى آسيا ، فإن روما تعترف به ملكاً على مصر ، وتمنحه لقب « حليف وصديق الشعب الرومانى » . وقد صدر هذا القانون فى شهر فبراير من عام ٥٩ ق.م. برغم المعارضة الشديدة التى أثارها الأرستقراطيون ضده[١] . وتأكيداً لهذا القانون ، عقدت معاهدة تحالف وود مع مصر ، وحفظت بين سجلات الكابيتول ، كما جاء فى دفاع شيشرون عن رابيريوس[٢] . وهكذا جاءت نجاة بطلميوس الزمار على يد من كانوا يحاولون من قبل إقصاءه عن عرش مصر ؛ وأعتقد أنه قد آن له أن يطمئن على تاجه ، وأن ينعم بقسط من الهدوء والراحة فى ظل الرضاء الذى حظى به من سادته الرومان !

لكن بطلميوس الزمار كان واهماً فى واقع الأمر ، فهو قد ربط نفسه إلى عجلة الصراع الحزبى فى روما ، والصراع الحزبى فى كل زمان ومكان لا تؤمن له عواقب ، ذلك لأن مصالح الأحزاب وأهدافها السياسية هى التى ترسم لها خطة العمل التى ينبغى أن تنتهجها ، فهى قد تهادن اليوم جهة من الجهات ثم لا تلبث بعد قليل أن تعلن عليها حرباً شعواء ، وذلك هو ما حدث بالفعل

دخل الملك السنوى إذا صح ما جاء فى سترابون (XVII, p. 797) نقلا عن شيشرون من أن دخل الزمار كان ١٢٥٠٠ تالنتا فى السنة . وقد ذكر ديودوروس (loc. cit.) فى معرض حديثه عن زيارته لمصر (حوالى عام ٦٠ ق . م .) ، أن دخل الملك كان ستة آلاف تالنتا فى السنة . ونحن نستبعد أن يطالب قيصر ملك مصر بدفع كل دخاه السنوى ، ولهذا نرجح أن يكون ديودوروس قد استند فى ذكر هذا الرقم على معلومات خاطئة كان يستقيها من أفواه الكهنة ولا يمحصها ، أو لعله كان يقصد الدخل النقدى دون العينى . Cf. E. Bevan, op. cit. p. 352, No. 1

(١) Cic. Ad Att., II, 5-16.

(٢) Cic. Pro Rabir., 3.

بالنسبة للمسألة المصرية فى حلبة الصراع الحزبى فى روما ، فقد كان الحزب الديموقراطى تواقاً للحصول على مصر ومواردها ، ورأينا كيف حاول قيصر أكثر من مرة أن ينتزعها من بطلميوس الزمار ، ولكن الحزب الأرستقراطى كان يقف لهذه المحاولات بالمرصاد حتى يقضى عليها ، ثم تغيرت الأوضاع ، فإذا بالحزب الديموقراطى هو الذى يدافع عن ملك مصر ضد الحزب الأرستقراطى ، وهو الذى يعترف رسمياً بحق بطلميوس الزمار فى التاج المصرى ، ولم يكن ذلك بطبيعة الحال حباً فى ملك مصر وحرصاً على مصالحه ، وإنما استجابة لدواعى المصلحة الحزبية الخالصة فى روما .

مشكلة قبرص :

ولم يكد ينقضى عام واحد على اعتراف روما رسمياً ببطلميوس الزمار حتى أثيرت مشكلة قبرص ، تلك الجزيرة التى بقيت وحدها من أجزاء الإمبراطورية البطلمية القديمة . فقد تقدم نقيب العامة « كلوديوس » بعدة اقتراحات بقوانين ، أغلب الظن أنها كانت بوحى من قيصر . وكان من بين هذه الاقتراحات واحد يقضى بضم جزيرة قبرص إلى الأملاك الرومانية ، وتحويلها إلى ولاية رومانية[1] .

والواقع أن مشروع القانون الذى تقدم به « كلوديوس » كان عملا سياسياً بارعاً ، أصاب عدة أهداف بضربة واحدة ، فقد جاء فى مذكرته التفسيرية — إذا جاز لنا استعمال هذا التعبير الحديث — أن دخل هذه الجزيرة سوف يحول إلى خزانة الجمهورية[2] . والحقيقة أن حزب الشعب كان يقصد الاستيلاء على هذا الدخل ليعوض ما فقده بتنازله عن مصر ، وليتمكن من تمويل قانون شعبى آخر يقضى بمنح الغلال لأفراد الشعب دون ثمن على الإطلاق ، وهكذا يرضى العامة الذين يؤيدونه . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى ، فقد عهد

---

(١) كان يحكم قبرص منذ عام ٨٠ ق . م . شقيق الزمار الذى أتى معه من سوريا . وكان يسمى بطلميوس ، ولا نعرف له كناية خاصة كغيره من البطالمة .

(٢) Liv., Epit., CIV; Dio Cass., XXXVIII, 30.

إلى كاتو بالذهاب إلى قبرص لإقناع ملكها بالتنازل عنها للرومان ، والقصد من ذلك إبعاد هذا الزعيم الأرستقراطى العنيد عن روما حتى لا يفسد فى غيبة قيصر تدابير حزب الشعب[١] .

ولم يكن من العسير على « كلوديوس » أن يمهد لمشروعه بكثير من الحجج التى تبرره ، فقد اتهم ملك قبرص بعدائه الشديد للرومان وصداقته الوطيدة مع القراصنة [٢] ، واعتمد على وصية بطلميوس الإسكندر الثانى التى كان الرومان لا يفتأون يتحدثون عنها ؛ أما المعاهدة التى عقدت مع الزمار منذ عام واحد ، فإنها لا تنصب على قبرص إذ نص فيها على « ملك الإسكندرية » وحده دون ملك قبرص .

وكان حرياً ببطلميوس الزمار حينئذ أن يكافح من أجل الاحتفاظ بقبرص ، تلك الجزيرة التى كانت جزءاً من أملاك البطالمة منذ عهد أولهم الملك بطلميوس سوتر ، كان حرياً به أن يرد على حجة « كلوديوس » الأخيرة بأن « ملك الإسكندرية » المشار إليه فى معاهدة عام ٥٩ ق.م. هو ملك مصر وما يتبعها ، وأن قبرص ليست مملكة منفصلة مستقلة بذاتها ، وإنما هى جزء لا يتجزأ من المملكة البطلمية . وموقف كهذا هو أقل ما كان ينتظره شعب الإسكندرية من ملكه بطلميوس الزمار . ولكن الإسكندريين لفرط دهشتهم وجدوا منه إهمالا زرياً لمشكلة قبرص التى أثارها الرومان على هذا النحو . ويبدو أنه وقد ظفر باعتراف الرومان الرسمى بملكه فى وادى النيل قد آثر ألا يغضبهم بالتمسك بقبرص ، وفضل أن يضحى بهذه الجزيرة فى سبيل إرضاء

---

(١) قصد قيصر إلى بلاد الغال فى عام ٥٨ ق . م . تاركاً روما وشئونها الداخلية فى يد حليفيه بومبى وكراسوس . وكان بين نقباء العامة واحد يدعى « كلوديوس » ، كانت صلته بقيصر وطيده ، فاعتمد عليه قيصر فى تنفيذ خطة رسمها معه قبل رحيله إلى بلاد الغال .

(٢) Strab., XIV, p. 684; App., B. Civ., II, 23.

ويحدثنا سترابون بأن كلوديوس « كان قد وقع فى يد القراصنه (عام ٦٧ ق . م .) ، ولم يقدم ملك قبرص الفدية الكافية لفك أسرة ، إنما اكتفى بتقديم تالنتين لم يقنع بهما القراصنة ، فظل « كلوديوس » أسيراً لديهم حتى اقترب منهم بومبى . وكان طبيعياً ألا ينسى « كلوديوس » هذا الموقف لبطلميوس ملك قبرص .

سادته الرومان حتى لا يعرض عرشه فى مصر نفسها للزوال . ويرى « بوشيه — لكلرك »(١) أن السبب فى هذا الموقف المخجل الذى وقفه بطلميوس الزمار هو أنه لم يجد فسحة من الوقت كى يتصل بأخيه ملك قبرص ويرتب معه شئون الدفاع عن حقهما فى الجزيرة ، فقد قدم اقتراح « كلوديوس » فى شهر ديسمبر من عام ٥٩ ق.م. ، ثم ووفق عليه فى شهر مارس من العام التالى . ولكننا نعتقد أن بطلميوس الزمار لم يبذل أية محاولة لهذا الاتصال ، ولم تبد منه أية بادرة تدل على اهتمامه بالاحتفاظ بقبرص حتى لقد أثار دهشة الأرستقراطيين أنفسهم فى روما(٢) .

وأيا كان الأمر ، فما كاد « كلوديوس » يظفر بالموافقة على قانونه ، حتى طلب إلى الشعب إرسال « كاتو » إلى الجزيرة للإشراف على تصفية أموال الملك المخلوع ، فهو الرجل الذى يمكن الاعتماد عليه فى القيام بمهمة جليلة الخطر كهذه ! وواقع الأمر كما ذكرنا هو الرغبة فى إبعاد « كاتو » عن روما أطول مدة ممكنة أثناء غياب قيصر عنها حتى يصفو الجو تماماً للحزب الديموقراطى ، ولا سيما بعد أن أمكن نفى شيشرون من العاصمة فى عام ٥٨ ق.م.

واضطر « كاتو » إلى مغادرة روما . ويحدثنا « بلوتارك » بأنه لم يزود فى رحلته بقوات عسكرية أو بحرس خاص ، وإنما صاحبه تابعان اثنان فقط ، ومضى « كاتو » إلى « رودس » حيث أقام فى انتظار صديقه « كانيديوس » Canidius الذى أرسله إلى بطلميوس ملك قبرص ليقنعه بالتنازل عن الجزيرة دون قتال نظير تعيينه كاهناً لمعبد أفروديت فى بافوس إلى جانب الظفر بصداقة الشعب

---

(١) B. - Leclercq, op. cit., II, p. 139.

(٢) Cic., Pro Sest., 27.

وقد هاجم شيشرون فى دفاعه عن « سستيوس » (عام ٥٦ ق . م .) قانون كلوديوس الخاص بضم جزيرة قبرص ؛ ومما جاء فى هذا الدفاع قوله « إن الشعب الرومانى قد أظهر تسامحاً مع أعدائه الذين حاربهم ، فرد لهم تيجانهم ، كما حدث مع انطيوخوس الأكبر وتيجرانس بل وميثريداتيس نفسه ، بينما انتزع التاج من ملك قبرص التعيس برغم أنه كان دائماً صديقاً وحليفاً لنا ، ولم يبد منه ما يدعو إلى الشك فيه . » ولم يكن هذا الدفاع عن ملك قبرص خالصاً لوجه الحق ، وإنما هو تعبير عن عداء حزبى وشخصى بين شيشرون وكلوديوس بعد أن استطاع هذا الأخير نفى شيشرون من روما.

الرومانى[١] . ولكن ملك قبرص فضل الانتحار على أن يقضى بقية أيام حياته فى مسوح الرهبان[٢] . وعندما وصلت هذه الأنباء السارة إلى « كاتو » أسرع إلى الجزيرة ، وقام بالعمل الذى أنيط به خير قيام ، فباع كنوز الملك بطلميوس بما يقرب من سبعة آلاف تالنتا عاد بها إلى روما مع ما احتفظ به من الطرف.[٣]

وهكذا وضعت روما يدها على جزيرة قبرص ، وانتزعت من التاج البطلمى آخر ما بقى له من الممتلكات الخارجية ، ولم يكن ذلك الإجراء الذى اتخذه الرومان إلا عملا من أعمال العسف والظلم والاستهانة بحقوق الضعفاء ، عملا دفعت إليه ضرورات الصراع الحزبى العنيف الذى احتدم أواره فى العاصمة الرومانية بين الديموقراطيين والأرستقراطيين .

الزمار يغادر الإسكندرية :

وماذا حدث لبطلميوس الزمار بعد ذلك ؟ يقول بلوتارك[٤] إنه كان فى روما عندما عرضت كنوز أخيه المنتحر فى شوارعها ، وإنه كان بين المتفرجين على هذه الكنوز ! فكيف حدث ذلك ؟ حدثنا ديوكاسيوس[٥] بأن الإسكندريين وقد استبد بهم الغضب لضياع قبرص ، طلبوا إلى ملكهم الاختيار بين أمرين : فإما أن يطالب الرومان برد الجزيرة التى اغتصبوها اغتصاباً ، وإما أن ينفض يده من صداقة هؤلاء الجشعين . ولما لم يكن فى وسع الملك الاستجابة لأى المطلبين ، ولم تكن لديه القوات الكافية التى يحمى بها نفسه من ثورتهم ، فقد آثر الذهاب إلى روما ينشد مساعدتها متهماً رعاياه بطرده من عاصمة ملكه . ولم يتجه الزمار إلى روما مباشرة ، وإنما عرج فى طريقه على رودس ليستمد المشورة والنصح من « كاتو » . فلما وصلها وأحيط « كاتو » علماً بذلك ، دعا ملك مصر لمقابلته ولم يذهب إليه هو ؛ ودخل الزمار على هذا

---

(١) Plut., Cato minor, 34.

(٢) Val. Max., II, 38, 45.

(٣) Plut., op. cit., 36.

(٤) Ibid., loc. cit.

(٥) Dio Cass., XXXIX, 12.

الرومانى المتعجرف فوجده جالساً على كرسيه يزيل ضروره ! ! وبدأ كاتو يتحدث إلى ملك مصر ، فنصحه بألا يذهب إلى روما حتى لا يضع نفسه هناك تحت رحمة الصراع الحزبى الداخلى ، وأفهمه أنه باستعدائه الرومان على شعبه يرتكب خطأ جسيماً لا يغتفر . فلسوف يصبح فى العاصمة الرومانية أداة فى يد رجال الأحزاب الذين لا يخلصون إلا لأنفسهم ، والذين لا يمكن أن تشبع مصر نهمهم إلى المال ولو تحولت كلها ذهباً ، ثم هو آخر الأمر لن يظفر منهم بطائل . وأشار عليه بوجوب العودة إلى مصر واسترضاء شعبه الغاضب ، وعرض عليه أن يصحبه إليها ليكون رسول سلام بينه وبين أفراد رعيته(١) .

ونحن لا نشك فى أن النصيحة التى أدلى بها « كاتو » إلى بطلميوس الزمار لم تكن خالصة فى ذاتها ، إنما هى المصالح الحزبية التى دفعته إلى توجيه هذه النصيحة ، فهو حاقد على الحزب الديموقراطى الذى قبض على مقاليد الأمور فى روما ، وهو يعرف تماماً أن القصد الحقيقى من إرساله إلى قبرص كان إبعاده عن العاصمة الرومانية بعد أن أبعد عنها شيشرون ، ولهذا كان حريصاً على ألا يقع ملك مصر فى أيدى رجال هذا الحزب وعلى رأسهم نقيب العامة « كلوديوس » . وقد كان حرياً ببطلميوس الزمار أن يستجيب لداعى العقل والمنطق فيعمل بهذه النصيحة الغالية والواقع أنه تأثر بها كثيراً وكان على وشك العمل بها لولا هذه الحفنة من الرجال الذين كانوا فى صحبته ، فقد أقنعوه بوجوب الذهاب إلى روما واتهام شعبه بأنه طرده من الإسكندرية طرداً .

ووصل بطلميوس الزمار إلى روما واتهم شعبه بهذه التهمة كما يحدثنا المؤرخون القدامى ، ولكننا نعتقد مع « بوشيه لكلرك » أنها تهمة باطلة(٣) ، فذلك هو ما يمكن أن نستنتجه من نصيحة « كاتو » له ، ومن رغبته فى الاستجابة لهذه النصيحة ؛ فكيف نتصور استعداده للعودة إلى الإسكندرية قبل أن يصل إلى روما إذا كان الإسكندريون قد طردوه حقاً منها ؛ ثم إننا نعتقد أيضاً أن مجرد

---

(١) Plut., op. cit., 35.

(٢) Cic., Pro Rabir., 2; Liv. Epit.; Str. XII, p. 558; XVII, p. 796.

(٣) B. - Leclercq, op. cit. II, pp. 143-144.

ذهابه إلى قبرص يدل على أنه غادر الإسكندرية مختاراً ، فأغلب الظن أنه كان يتجه إلى روما مباشرة لو أنه خرج من عاصمته مطروداً ، إذ ما الذى يدعوه لزيارة كاتو أولا واستشارته فى الأمر ، وهو يعلم أن كاتو على غير وفاق مع الحزب الديموقراطى صاحب السلطة فى روما ؟ هذا ويضيف بوشيه لكلرك[١] حجة أخرى يرجح بها رأيه ، وهى أن الزمار لم يصحب معه أفراد أسرته إلى روما مما يدل على أنه كان على ثقة من أنه يستطيع العودة فى أى وقت يشاء ، وإلا فكيف تثور عليه الإسكندرية ، ويطرده شعبها ثم يترك أفراد أسرته تحت رحمة هؤلاء الثائرين ؟ وهى حجة لا بأس بها ، ولكن قد ينقضها أن الزمار لم يجد لديه متسعاً من الوقت أمام ثورة الإسكندرية ، فنجا بحياته أولا ، وهو يعرف من سوابق مثل هذه الثورات أن شعب الإسكندرية برغم ثورته على الملك الجالس على العرش لم يكن يضمر شراً للأسرة البطلمية ذاتها ، وإنما كان يبحث بين أفرادها عمن يستطيع إجلاسه على العرش

برنيكى الرابعة تعتلى العرش :

ويبدو أن الإسكندريين قد استولت عليهم الدهشة لرحيل ملكهم المفاجىء ، ويبدو أيضاً أن ذهابه إلى قبرص قد ضللهم فلم يستطيعوا اقتفاء أثره . ويحدثنا « كاسيوس » بأنهم لم يعرفوا أنه لجأ إلى إيطاليا ، بل إنهم اعتقدوا أنه قضى نحبه ، فأجلسوا على العرش ابنته برنيكى (الرابعة)[٢] . أما « بورفيريوس » فيقول إن شعب الإسكندرية لم يقدم على ملء العرش إلا بعد أن طالت غيبة الزمار فى إيطاليا فاعتقدوا أنه لا يزمع العودة[٣] . واشتركت كليوبتره تريفاينا[٤] فى الحكم

(١) Ibid., loc. cit., p. 144.

(٢) Dio. Cass., XXXIX, 13.

(٣) Porphyr., I, p. 168.

(٤) يحدثنا المؤرخون القدامى بأن بطلميوس الزمار أنجب خمسة أبناء : ثلاث بنات هن برنيكى وكليوبترة وارسينوى ، وولدين هما بطلميوس (الرابع عشر) . و بطلميوس (الخامس عشر) ولكن بورفيريوس (Loc. Cit.) ، يذهب منفرداً إلا أن الزمار قد أنجب قبل هؤلاء جميعاً ابنته الكبرى كليوبترة تريفاينا التى كانت تحمل نفس اسم والدتها ، وهو يقول إن هذه الابنة هى التى اشتركت فى حكم مصر مع أختها

مع برنيكى الرابعة فى الحكم ، ولكن تريفاينا توفيت سريعاً فى خلال العام الثانى لخروج الزمار من مصر ، فانفردت برنيكى بالحكم ، وتولى الوصاية عليها بعض كبار موظفى الدولة

الزمار فى روما :

وعندما وصل بطلميوس الزمار إلى روما كان قيصر فى بلاد الغال ،

برنيكى فى عام ٥٧ ق . م . بعد أن غدرها والدها ، وأنها توفيت سريعاً بعد ذلك ، فانفردت برنيكى بالحكم . أما سترابو (XVII, p. 796) فيقول إن الاسكندريين توجوا الابنة الكبرى للزمار بعد أن طردوا والدها ، وإن هذه كانت ابنته الشرعية الوحيدة . وأما ديوكاسيوس فلا يعرف غير برنيكى ملكة لمصر فى خلال الفترة التى ظل فيها الزمار بعيداً عن مصر (٥٨ — ٥٥ ق . م .) . ولم يتحدث واحد من هؤلاء المؤرخين القدامى عن الملكة الأم زوجة الزمار ؛ ومعنى هذا أنها توفيت قبل رحيل الزمار عن الإسكندرية بزمن طويل كان كافياً لأن ينجب فى خلاله أربعة أبناء غير شرعيين كما يصفهم سترابو . وقد وافق المؤرخون الألمان (ابتداء من لبسيوس وفلكن إلى شتراك) على أن كليوبتره تريفاينا الأم قد توفيت قبل عام ٥٨ ق . م . بل إن شتراك ليذهب إلى أنها توفيت فى نهاية عام ٦٩ ق . م . مستنداً إلى أن اسمها لم يظهر بعد هذا التاريخ فى الوثائق أو على الآثار مما يثبت أنها لم تكن على قيد الحياة (Cf. B. - Leclercq, II, p. 145, No. 1) . ولهذا يقول هؤلاء المؤرخون أن تريفاينا سميت باسم والدتها ، وأن الأبناء الأربعة الذين أنجبهم الزمار بعد هاتين البنتين كانوا جميعاً غير شرعيين . ولكن لكلرك (Loc. Cit.) لا يوافق على هذا الزعم ، ويعتقد أنه لو صح لكان سلاحاً ماضياً فى يد روما وهى تحاول جاهدة (بين عام ٤٧ وعام ٣٠ ق . م .) ضم مصر نهائياً إلى أملاكها . ولكنها فى خلال محاولاتها لم تتذرع مرة واحدة بأن كليوبتره تريفاينا وأخويها كانوا غير شرعيين ، ومن ثم تستطيع اقصائهم عن العرش . ولهذا يرى لكلرك أن هؤلاء الأبناء كانوا شرعيين ، وأن كليوبتره الأم لم تكن قد توفيت عند رحيل زوجها إلى روما ، وأنها هى التى شاركت ابنتها الملك فى عام ٥٨ ق . م . ومما يؤيد هذا الرأى النقش الذى وجد فى معبد أدفو (وهو مؤرخ باليوم الأول من شهر كيهك فى العام الخامس والعشرين من حكم الزمار — ١٥ ديسمبر عام ٥٧ ق . م .) مشيراً إلى انتهاء العمل فى هذا المعبد ، وقد ورد فيه اسم الزمار مع أخته الملكة كليوبتره تريفاينا . وكان الملك عندئذ خارج مصر ، ولكن يبدو أن الكهنة كانوا لا يزالون يعتبرونه ملكاً ولا يعترفون بما جرى فى الاسكندرية . والنقش يدل على أن الملكة الأخت كانت على قيد الحياة . ومن المستبعد أن تكون وفاتها قد حدثت قبل هذا التاريخ بأحد عشر عاماً ولا يدرى الكهنة فى أدفو هذه الحقيقة . أما اختفاء اسم هذه الملكة من الوثائق منذ عام ٦٩ ق . م . فلعله راجع إلى خلاف شخصى بينها وبين الملك جعله يأمر باغفال اسمها فى الوثائق ، وربما تجود الاكتشافات المقبلة بوثيقة تحمل اسمها بعد ذلك التاريخ .

فاستقبله بومبى استقبالا كريماً ، وأنزله فى قصر من قصوره على تلال « ألبانى » ، وهيأ له فرصة تدبير أموره فى هدوء وروية . وقد تحول هذا القصر إلى شبه مصرف مالى وملتقى لأصحاب الجاه والنفوذ من الرومان(١) . وسرعان ما نفذت الأموال التى حملها الزمار معه إلى روما ، ويبدو أنها كانت قليلة لأنه لم يكن يتوقع لنفسه إقامة طويلة بين الرومان ، فاضطر إلى الاستدانة من الممولين الرومان واعداً بالسداد عندما يعود إلى بلادة . ثم أخذ يوزع رشاويه وهباته على أعضاء مجلس الشيوخ حتى لنستطيع أن نقول إنه اشترى بأمواله هؤلاء الأعضاء جميعاً كما جاء فى دفاع شيشرون عن رابيريوس بوستوموس أحد الذين استدان منهم الزمار مبالغ طائلة(٢) . والواقع أن بعض الذين كانوا يترددون فى بيع ضمائرهم للزمار ، كانوا سرعان ما يوافقون على الصفقة بمجرد أن ترتفع قيمة المبالغ المعروضة عليهم . فلم يكن الأمر إذاً أمر خلق ومبادئ ، وإنما هى عمليات تجارية وصفقات مالية ، الرابح فيها هم الرومان والخاسر دائماً بطلميوس الزمار الذى باع نفسه لهؤلاء الجشعين الأقوياء ، وأهمل نصيحة غالية بذلها له كاتو فى قبرص .

ولم يتورع الزمار عن ارتكاب جريمة القتل فى سبيل إسكات كل لسان يحاول معارضة قضيته : فقد أرسل شعب الإسكندرية إلى روما سفارة تتألف من مائة شخص يرأسهم الفيلسوف « ديون » ليردوا على اتهامات الزمار ، ويثبتوا المظالم القاسية التى أنزلها بهم(٣) . ولما علم بطلميوس بأنباء هذه السفارة من وكلائه وعيونه ، عول على أن يمنع أفرادها من مجرد الوصول إلى روما ، فأرسل إلى الميناء الذى نزلوا به من استقبلهم بالخناجر(٤) ، وتمخضت المجزرة عن مقتل معظمهم ، أما الباقون فقتلوا فى روما نفسها ، وأفلح عدد ضئيل

---

(١) Strab., XVII, p. 796; Dio Cass., XXIX, 14; Cic., Pro Rabir., 3.

(٢) Cic., loc. cit.

(٣) Strab., XVII, p. 796; Dio Cass., XXXIX, 13-14.

ويبدو هذا عدداً ضخماً جداً ، ولكن الإسكندريين فيما يظهر كانوا يهدفون إلى التأثير فى الرومان بهذه المظاهرة الكبيرة .

(٤) Cic., Pro Caelio. 10.

فى الفرار من الموت ، ولكن الزمار أفلح فى شراء هذا النفر بالمال ، ولعلهم آثروا الصمت العميق من تلقاء أنفسهم حتى لا يصيبهم ما أصاب زملاءهم الآخرين [١] .

وأخيراً عرضت قضية بطلميوس الزمار على مجلس الشيوخ الرومانى ، فقرر أعضاؤه (عام ٥٧ ق م) إرسال المدعو لنتولوس سبنتر L. Spinther إلى الإسكندرية كى يعيد ملك مصر إلى عرشه [٢] . ولما كان شيشرون قد أعيد من منفاه بناء على اقتراح لينتولوس ، فإنه رد إليه الجميل بخطاب ألقاه عن ملك مصر (De Rege Alexandrino) ، حيا فيه محرره ، وبارك المهمة التى أنيطت به فى مصر ؛ ولكن المعارضة أتت من ناحية نقيب العامة فافونيوس « M. Favonius » الذى وقف عندئذ يناوئ الحكومة الثلاثية ، ويحمل راية الأرستقراطيين ! ! فقد فضح هذا التربيون مأساة سفراء الإسكندرية الذين لقوا حتفهم ، وتحدث فى لهجة لا تنقصها الصراحة عن القتلة الآثمين الذين أفلتوا من العقاب . ويبدو أن حديثه الصريح هذا كان له أثره فى رجال مجلس الشيوخ ، فقرروا استدعاء ديون رئيس سفارة الإسكندرية ليدلى لهم بالحقيقة ، لكن ديون لم يكن من السذاجة بحيث يستجيب لهذا النداء طالما كان الزمار فى روما [٣] ، وأغلب الظن أنه كان ينوى عدم الإشارة إلى زملائه أعضاء البعثة الذين قتلوا بتدبير ملكهم . وأيا كان الأمر ، فقد تخلص منه الزمار ، فبعث إليه بمن قتله فى منزل مضيفه « لوكايوس » L. Lucceius ، [٤] وهكذا لحق رئيس سفارة الإسكندرية بمرءوسيه ولقى حتفه فى روما ، وأفلت مرتكب الجريمة من العقاب كما أفلت الذين قتلوا أعضاء السفارة جميعاً . لقد كانت أموال هذا الملك كفيلة بتكميم الأفواه . واتجهت التهمة إلى عبيد « لوكايوس »

---

(١) Dio Cass., XXXIX, 12-14.

(٢) Dio Cass., XXXIX, 12.

وكان لنتولوس مرشحاً لتولى حكم كيليكيا فى عام ٥٦ ق . م .

(٣) Dio Cass., XXXIX, 14.

(٤) Cic., Pro Rabir., 10 & 22.

أنفسهم ، وقيل إن الذى أوحى إليهم بارتكابها كان كايليوس روفوس M.C. Rufus فقدم للمحاكمة ، لكن دفاع شيشرون وكراسوس عنه كان كفيلا بتبرئته .

الزمار يغادر روما :

وخشى بطلميوس الزمار — بعد كل ما اقترفه فى روما وما أثير حوله من ضجة — أن تتغير الظروف فى عاصمة الجمهورية ، فآثر أن يغادرها ، وانتقل إلى الشرق فى عام ٥٧ ق.م. حيث أقام ينتظر وصول « لنتولوس »(١) . وترك الزمار فى روما صديقه الحميم « أمونيوس » للإشراف على مصالحه ، أو بمعنى أدق ، لإكمال مساعيه لدى ذوى النفوذ من الرومان.(٢) وبدا كأن كل شيء قد هيئ لعودة الزمار إلى عرشه : فقرار السناتو بإعادته لا زال نافذاً ، ولنتولوس نفسه لم يكن أقل رغبة من بطلميوس فى السفر إلى الإسكندرية ، فتلك مهمة ستعود عليه بالخير الوفير . . . ولكن جواً كهذا الذى كان يسود العاصمة الرومانية لم تكن تؤمن له عواقب . وسرعان ما أتت الرياح بما لا تشتهى السفن ، فقد كان بين نقباء العامة الذين اعتلوا مناصبهم فى ديسمبر من عام ٥٧ ق م شاب يتقد حماسة يدعى « كاتون » ، استطاع أن يثير الشعب الرومانى ضد بطلميوس الزمار ولنتولوس على السواء ، وكان يهدف إلى عرقلة إعادة ملك مصر إلى عرشه(٣) . وليس من شك فى أن ثورة « كاتون » هذه لم تكن تلقائية ، وإنما دفعه إليها أصدقاء بومبى الذى كان يريد إسناد مهمة إعادة الزمار إليه هو دون غيره حتى تتاح له فرصة قيادة جيش رومانى .

---

(١) يقول « كاسيوس » إن ملك مصر أقام فى إفسوس منذ يناير عام ٥٦ ق . م . (XXXIX, 16) ، ولهذا يحتمل أنه قضى فترة من الوقت فى أثينا قبل وصوله إلى أفسوس .

(٢) Cic., Ad Fam., I, 1, 1

(٣) Cic., Ad Quint. fratr., II, 3. 4.

الصراع الحزبي يؤخر عودة الزمار :

وكان قنصلا عام ٥٧ ق.م. قد اقترحا تكليف بومبي الإشراف على تموين روما بالغلال ، وتمت الموافقة على هذا الاقتراح الذى ظفر بومبي بموجبه بسلطات واعتمادات مالية لا حد لها[١]. ولكن بومبي لم يقتنع بهذا ، وأحس بأن المهمة ضئيلة لا تتناسب ومكانته العسكرية ، وهو القائد المظفر الذى قهر ميثريداتيس. وكان بومبي يعتقد أن حقد الشيوخ عليه هو السر الوحيد فى إقصائه عن مهمة إرجاع بطلميوس الزمار إلى عرشه ؛ وإلا فكيف يستساغ إسناد هذه المهمة الخطيرة إلى رجل مثل لنتولوس يقل عنه خبرة وكفاية ، بل إنه لم يسبق له أن اشترك فى معركة واحدة ؟ والواقع أن بطلميوس الزمار كان يفضل أن تكون عودته إلى عرشه على يد بومبي قبل سواه ، ولكنه لم يكن يستطيع الاختيار ، وكان عليه أن يقبل ما يقرره مجلس الشيوخ فى هذا الصدد ؛ وله بعد ذلك أن يعمل سراً مع أصدقاء بومبي على إقصاء لنتولوس من الميدان . ونجحت الخطة التى دبرت ، وأفلح أصدقاء بومبي وأعوانه فى تحويل أنظار العامة نحوه هو ، بعد أن أدت حركة « كاتون » إلى وضع لنتولوس موضع الشك ، وأسهم أمونيوس — وكيل الزمار فى روما — فى هذه المحاولات كلها بنصيب وافر تنفيذاً لرغبات ملك مصر .

على أن هذه المناورات المكشوفة لم تفت فى عضد النبلاء وأصدقاء لنتولوس سبنثر ، وإنما زادتهم إصراراً على مقاومة بومبي وأطماعه التى لا تقف عند حد . وبينما كان الصراع الحزبي مشتداً على هذا النحو فى العاصمة الرومانية ، إذا بالشائعات تتواتر فى بداية شهر يناير من عام ٥٦ ق.م. بأن صاعقة نزلت بتمثال الإله جوبيتر لاتياريس Jupiter Latiaris[٢] . ولما كان نزول

---

(١) كانت مدة هذه المهمة خمسة أعوام ، انظر : (Cic., Ad Att., IV, 1, 7.)

(٢) « جوبيتر » إله الرومان الأعظم ، شأنه فى ذلك شأن « زيوس » عند الإغريق و « آمون رع » عند المصريين القدماء . وكان جوبيتر يعبد تحت أسماء مختلفة من بينها جوبيتر كابيتولينوس (Capitolinus) الذى يشرف على الألعاب الرومانية الكبرى ويرعاها ، وجوبيتر لاتياريس أو لاتياليس (Latialis or Latiaris) ، الذى يرعى الأعياد اللاتينية ، وهو

صاعقة كهذه فى موسم الشتاء يعتبر نذير شر مستطير ، فقد لجأ الرومان إلى كتب « سيبيلى »(١) المقدسة يستلهمونها الرحى ، وفيها وجدت لجنة الخمسة عشر النبوءة التالية : « إذا جاءكم ملك مصر يطلب العون فلا تبخلوا عليه بصداقتكم ، ولكن إياكم ومساعدته بالقوة ، وإلا فإنكم تعرضون أنفسكم للآلام والأخطار » . وكانت النبوءة واضحة لا تحتمل تأويل المفسرين ، فانتهز « كاتون » الفرصة وأرغم لجنة الخمسة عشر على قراءة النبوءة أمام الشعب فى السوق العامة برغم ما فى ذلك من مخالفة صريحة للقواعد المتبعة فى مثل هذه المسائل الدينية التى ينبغى أن تظل سراً بالنسبة للعامة ، إلا إذا وافق السناتو على إذاعتها .(٢)

تلك كانت المناورة الدينية التى لجأ إليها « كاتون » ، وكان لابد إذاً من مراعاة الشعور الدينى لعامة الرومان ، فلا التجاء للقوة المسلحة لإعادة الزمار إلى عرشه . على أن النبوءة لم تحرم معاونة ملك مصر تحريماً مطلقاً ، بل إنها لتحتم معاونته تحتيماً ، ولا بأس على الرومان ما التزموا فى هذه المعاونة الطرق السلمية . . . وهكذا قال أصحاب المصلحة فى إعادة الزمار إلى عرشه ، وكان منطقهم سليماً لا يداخله شك ، واستمع لهم أعضاء مجلس الشيوخ فى هدوء ، وبدت منهم الموافقة على ما يسمعون . . . ولكن لمن توكل هذه المهمة ؟ إنها سفارة سلمية ، فينبغى إذاً أن يرأسها رجل له مكانته وهيبته فى الشرق ، وليس أفضل من بومبى لملء هذا المكان . والزمار نفسه لا يثق فى سواه كما جاء فى

الذى نتحدث عنه هنا . ومن صفات جوبيتر أنه يقرر المصائر ، وينبئ بالغيب ، وينذر بالشرور بعلامات تظهر فى السماء كتلك الصاعقة التى نزلت بتمثاله ؛ انظر :

(Smith's Classical Dictionary, art. Jupiter.)

(١) تطلق كلمة سيبيلى (Sibyllae » على عدد من النساء اللائى يدلين بالنبوءات ، وقد اختلف فى عددهن ، فقيل إنهن كن أربعاً ، وقيل عشراً . وأشهرهن تلك التى قدمت من الشرق إلى إيطاليا ، وأهدت إلى الملك تاركوينوس الكتب التى عرفت باسمهن ، وبها مجموعة من النبوءات التى أدلين بها ، وقد حفظت هذه الكتب فى الكابيتول حتى عام ٤٠٥ م . (Cf. Smith, op. cit., art. Sibyllae)

(٢) Dio Cass., XXXIX, 15-16.

رسالة بعث بها إلى نقيب العامة بلاوتيوس A. Plautius [١] . على أن المهمة أضحت — فى هذه الصورة — غير جديرة بالتطاحن عليها ، فهى لا تعدو أن تكون سفارة عادية لا تضفى شيئاً من المجد على القائم بها ، ولا تتيح له الفرصة التى يتطلع إليها كل ذى أطماع ، فرصة قيادة الفرق المسلحة .

واحتدمت المناقشات فى مجلس الشيوخ الرومانى حول هذه السفارة السلمية ومن تناط به ، وقد بدأت فى الثانى عشر من شهر يناير عام ٥٦ ق.م. واستمرت حتى الخامس عشر من نفس الشهر دون الاتفاق على رأى نهائى : فقد نادى فريق بوجوب إرسال بومبى ، ورأى فريق ثان إرسال لنتولوس الذى ندبه المجلس لهذه المهمة من قبل ، وكان هناك فريق ثالث يدعو إلى تأليف سفارة من ثلاثة أفراد ، ولم يخل المجلس ممن كانوا ينادون بعدم معاونة الزمار إطلاقاً . وأمام هذا التضارب الشديد اضطر السناتو إلى تأجيل المسألة كلها إذ لم يبق لديه متسع من الوقت للاستمرار فى مناقشة المسألة المصرية بعد انتهاء النصف الأول من شهر يناير ، لأن النصف الثانى منه كان مخصصاً لانعقاد (المجلس الدستورى) ومن ثم يتعذر عقد مجلس الشيوخ ، هذا إلى أن السناتو كان يخصص جميع جلسات شهر فبراير لاستقبال السفارات التى تصل إلى روما من الخارج [٢] .

وكان التأجيل فى ذاته نصراً أحرزه الحزب الارستقراطى ، فهو يستهدف من ورائه عدم عرض المسألة المصرية على الكوميتيا ، لأنه يدرك تماماً أن العامة لا يحسنون فهم المناورات السياسية البرلمانية ، ويخشى أن تعرض المسألة عليهم فى المجلس الدستورى فيقعون فريسة لمناورات بومبى ولنتولوس وأنصارهما . وقد أصدر مجلس الشيوخ قراراً بهذا المعنى ، ولكنه قوبل بالاعتراض الشديد من نقيبى العامة « كاتون » و « كانينيوس »[٣] . وفى أواخر شهر يناير تقدما بمشروع يقضى بإسناد مهمة إعادة الزمار إلى بومبى بدلا من لنتولوس[٤] .

---

(١) Dio Cass., XXXIX, 16.

(٢) Cic., Ad Fam., I, 4.

(٣) Cic., Ad Fam., I, 2, 4.

(٤) Cic., Ad Quint. fratr., II, 2-3; Ad Fam., I, 5.

وكان طبيعياً أن تؤدى هذه المناورة الجديدة إلى إثارة الشغب والتنافس من جديد حول المسألة المصرية .

وكان بومبى يرقب هذا الذى يجرى دون أن تبدو منه أية حركة أو خطوة عملية ، ولكن أنصاره ووكلاء الزمار لم يدخروا جهداً فى الظفر بقرار لصالحه ، فنثروا حول السوق العامة نسخاً لرسالة — لا نعرف إذا كانت حقيقية أم مزيفة — بعث بها الزمار مطالباً بإحلال بومبى محل لنتولوس فى مهمة إرجاعه إلى عرشه(١) . لكن أسهم بومبى كانت حينئذ آخذة فى الهبوط ، فإذا بمحبة الشعب له تتضاءل ، فضلا عن عدم ارتياح النبلاء لأطماعه . أما رجل الساعة فكان « كلوديوس » ، ذلك الزعيم الديماجوجى الذى وقف يؤيد « كراسوس » ، وينادى بإرساله إلى الإسكندرية . واشتد عداء « كلوديوس » لبومبى بعد أن وقف هذا الأخير يؤيد « ميلون Milon » قائد العصابات التى جندها النبلاء لمواجهة « كلوديوس » . واجتمع المجلس الدستورى فى السادس من فبراير ، ووقف بومبى يؤيد ميلون فاشتدت معارضة العامة له ، وارتفع ضجيجهم حتى طغى على صوته . ثم وقف « كلوديوس » بعده وصاح فى أعوانه : « من الذى يريد أن يذهب إلى الإسكندرية ؟ » فأجابوه « بومبى » فسألهم مرة أخرى : « ومن الذى يريد إهلاك العامة جوعاً ؟ » فأجابوه « بومبى » وأخيراً سألهم : « ومن الذى تريدون إرساله أنتم إلى الإسكندرية ؟ » فأجابوه « كراسوس » .(٢) وهكذا نرى أن الوفاق لم يكن قائماً بين أعضاء التحالف الثلاثى ، فها هو ذا « كراسوس » ينافس صديقه وزميله « بومبى » ، ويعمل على أن يظفر من دونه بمهمة إعادة ملك مصر إلى عرشه . وقد كان لما حدث فى المجلس الدستورى أثره الشديد على بومبى فآثر الانزواء قليلا والابتعاد عن الميدان ، ولم يعد أحد يراه فى السوق العامة .

وحاول النبلاء إحباط مناورات « كراسوس » فأفلحوا ، وظلت المسألة المصرية تشغل بال السياسيين فى العاصمة الرومانية شهوراً عدة دون أن ينتهوا

---

(١) Plut., Pomp., 49.

(٢) Cic. Ad Quint. fratr., II, 3, 2. Plut., Pomp., 48.

فيها إلى قرار حاسم ، حتى إذا كان شهر يوليو من عام ٥٦ ق.م. ، عول بطلميوس الزمار — الذى نفذ صبره — على الإقامة فى معبد الآلهة « أرتميس » بمدينة إفسوس ، وهناك وجد ما كان حينئذ فى مسيس الحاجة إليه من المال .[١]

ولم تعد المسألة المصرية فى مقدمة مشاكل السياسة الرومانية الحزبية ، وإنما قل الحديث عنها ، وأصبح الرومان لا يتناولونها إلا نادراً وهم يبدون أسفهم على هذا الوقت الطويل الذى أضاعوه فيها . أما المقاومة العنيفة التى واجه بها النبلاء محاولات بومبى وكراسوس ، فلم تكن لها نتيجة سوى توطيد أواصر الصداقة من جديد بين الرجلين ، وكان ذلك دعماً للرابطة بين أعضاء التحالف الثلاثى الذين وقفوا مرة أخرى صفاً واحداً ضد النبلاء .

الموقف فى الإسكندرية :

وكيف كانت الأمور تجرى بالإسكندرية فى خلال هذه الفترة الطويلة ؟ ليس من شك فى أن الإسكندريين كانوا لا يرغبون فى عودة الزمار إليهم ، وليس من شك أيضاً فى أنهم كانوا ينظرون بعين الرضا إلى هذا التطاحن الحزبى الذى شغل ساسة روما وحال دون اتخاذ أية خطوة عملية لإعادة الزمار إلى عرشه . على أنهم لم يكتفوا بهذا الموقف السلبى من ناحيتهم ، وإنما بذلوا جهوداً إيجابية أخرى ، فماذا فعلوا ؟ كانت لديهم ملكة ، هى برنيكى الرابعة ابنة ملكهم السابق ، لكن التقاليد الموروثة كانت تحتم وجود زوج لها يعتلى العرش معها ، وكان ينبغى — طبقاً لهذه التقاليد — أن تتزوج برنيكى من أحد أخويها ، لكن أكبرهما لم يكن يتعدى الثالثة من عمره فى سنة ٥٨ ق .م. ، فهو إذاً غير صالح . ومن ثم فقد فكر الإسكندريون فى البحث بين أمراء البيت السلوكى عمن يصلح زوجاً لملكتهم ، وهو البيت الذى ارتبط مع البطالمة برباط المصاهرة منذ أيام بطلميوس الخامس (ابيفانس) . وقد هداهم التفكير إلى أحد ابنى كليوبتره سيلينى اللذين أوفدتهما أمهما إلى روما فى عام ٧٥ ق.م. ، وأرسلوا

---

(١) Dio Cass., XXXIX, 16.

له ثلاثة سفراء لعرض الأمر عليه بصورة رسمية، ولكنه توفى قبل إتمام المفاوضات.(١) عندئذ اتجهت أنظارهم نحو أمير سليوكى آخر، هو فيليب حفيد انطيوخوس جريبوس. وقبل فيليب العرض مسروراً، لكنه لم يستطع التنفيذ أمام تدخل جابينيوس فى الأمر. وكان جابينيوس يشغل منصب البروقنصل فى سوريا (٥٧ — ٥٥ ق.م.). وأغلب الظن أنه كان يتصرف بوحى من بومبى عندما طلب إلى فيليب ألا يغادر سوريا، ولما كان الأمير السليوكى فقيراً لا يملك من الأموال ما يستطيع به إقناع جابينيوس بعدم الوقوف فى وجهه، فقد نفض يده من المسألة آسفاً (٢).

وكان تدخل جابينيوس على هذا النحو نذيراً لشعب الإسكندرية بأن بومبى يعمل من وراء الستار لتحقيق مآربه فى مصر، فزاد هذا من إصرارهم على البحث عن زوج لملكتهم يملأ المكان الشاغر، ويضع الزمار والمدافعين عنه أمام الأمر الواقع. ولما عز عليهم العثور على هذا الزوج بين أفراد البيت السليوكى الشرعيين، فقد بحثوا عنه بين المدعين، وما أكثرهم، ووجدوه آخر الأمر فى شخص يدعى سليوكوس، قيل إنه من سلالة ملوك سوريا(٣). وأمكن إحضار سليوكوس هذا إلى الإسكندرية حيث تزوج من برنيكى الرابعة واشترك معها فى الملك (٤). لكن هذا الملك كان فظاً غليظ القلب خس الطباع حتى أسماه الإسكندريون لأول وهلة «السماك»(٥). وكان طبيعياً ألا تحتمله الملكة برنيكى طويلا، فعملت على التخلص منه بقتله خنقاً. وسرعان ما بحث الإسكندريون عن زوج وشريك لملكتهم، واهتدوا أخيراً إلى «أرخيلاوس» الذى ادعى أن الدم الملكى يجرى فى عروقه، وأنه ابن ميثريداتيس إيوباتور.

---

(١) B. - Leclercq, op. cit., II, p. 160.

(٢) Prophyr., FHG., p. 716.

(٣) يرى بعض المؤرخين أن سليوكوس هذا كان أخاً لأنطيوخوس الثامن.
(Cf. B. - Leclercq, op. cit., II, p. 161, No. 1)

(٤) Strab., XVII, p. 796; Dio Cass., XXXIX, 57.

(٥) ويحدثنا سويتونيوس بأن هذا اللقب نفسه أطلق فيما بعد على فاسباسيان.
(Cf. Suet., Vesp., 19)

والواقع كما يقول « سترابو » إنه كان ابن « أرخيلاوس » أحد الذين اشتهروا بمعارضة « صلا » [١]. وقد وصل هذا الشاب إلى الإسكندرية فى شتاء عام ٥٦ — ٥٥ ق. م. واعتلى عرش مصر مع برنيكى الرابعة بعد أن تم زواجه منها .

تدخل جابينيوس فى المسألة المصرية :

عندئذ كان الوقت قد حان لتدخل جابينيوس فى المشكلة المصرية . وإذا كان هـذا الحاكم الرومانى قد منع فيليب من الذهاب إلى الإسكندرية لارتقاء عرش مصر مع برنيكى الرابعة بناء على تعليمات صدرت إليه من بومبى كما يرجح ، فإنه كان يفكر فى الأمر بما يتفق ومصلحته الخاصة . وليس ثمة شك فى أن جابينيوس قد اتصل بالزمار بطريقة ما ، وأن هذا الأخير طلب إليه أن يعينه على تحقيق أمنيته فى العودة إلى عرشه بعد أن فشل بومبى فى تحقيقها برغم الجهود الضخمة التى بذلها فى روما . واستطاع الزمار أن يغرى جابينيوس بالأموال ، فوعده بمبلغ باهظ [٢].

ولا ريب أن موافقة جابينيوس على غزو مصر استجابة لرغبة الزمار كانت تعنى إقدامه على عملية غير مشروعة ، فهو كحاكم لإحدى الولايات الرومانية لا يجوز له مغادرة ولايته دون إذن من السناتو ؛ ثم إنه سوف يشن حرباً ضد مصر برغم صدور قرار من السناتو بعدم استخدام القوة فى إرجاع الزمار إلى عرشه . لكن المخاطرة كانت هينة بالنسبة لما ينتظره جابينيوس من ورائها . هذا إلى أن بومبى وكراسوس كانا قد ظفرا بالقنصلية عندئذ (عام ٥٥ ق . م.) ، وأصبح بومبى بعد تجديد التحالف الثلاثى أقوى شخصية فى روما على الإطلاق . وإذاً فإن جابينيوس يستطيع أن يعتمد عليه كصديق ، وأن يتوقع حمايته له إذا ما ارتفعت أصوات المعارضة ضده فى عاصمة الجمهورية . ولم يكن عسيراً

(١) Strab., loc. cit.

وكان بومبى قد عين هذا الشاب كاهنا بمعبد « كومانا » فى بونتس ، ولكنه انتقل إلى سوريا واتصل بأنطونيوس (أحد رجال الحكومة الثلاثية الثانية فيما بعد) الذى كان يعمل عندئذ بسلاح الفرسان فى جيش جابينيوس (Cf. Plut., Anton., 3.)

(٢) Cic., Pro Rabir., 8 & 11; Plut., Anton. 3.

على حاكم سوريا أن يجد سبباً مباشراً لحملته العسكرية على مصر ، فادعى أنه يخشى قيام ملك مصر « أرخيلاوس » بحملة على سوريا(١) ، وأنه أمام هذا الاحتمال لا يستطيع إلا أن يسرع فيسبق عدوه ويغزو مصر ، وذلك هو المنطق السليم !

وتقدم جابينيوس نحو مصر فى ربيع عام ٥٥ ق.م. ، وفى ركابه بطلميوس الزمار ، وكان يقود فرسانه الشاب القدير ماركس أنطونيوس ، ووصلت الحملة بلوزيوم ، فوجدت بها حامية يهودية لم تبد أية مقاومة ، وإنما فتحت أبواب البلاد للغزاة(٢) . ومن بلوزيوم تقدمت القوات الرومانية نحو الإسكندرية ، وحاول « أرخيلاوس » المقاومة ، لكنه هزم وخر صريعاً فى ميدان القتال .

الزمار فى الإسكندرية :

هكذا استرد الزمار عرشه الذى غاب عنه عدة أعوام ، وأحس شعب الإسكندرية أن ساعة انتقام الملك العائد قد حانت ؛ ولكن ظمأ الزمار للمال كان أقوى وأشد من ظمئه للدماء . فهو قد استرد عرشه على أسنة رماح قوات أجنبية ، وهو قد استدان أموالا طائلة إبان إقامته فى روما ، وهو قد وعد دائنيه بالسداد عندما يعود إلى الإسكندرية ، ولقد عاد . . .

وبدأ بطلميوس العمل ، فتخلص أولا من ابنته برنيكى الرابعة التى سمحت لنفسها بارتقاء العرش استجابة لرغبة الإسكندريين ، فقتلها . ولم ينج من نفس المصير كل أعوانها ومؤيديها ، ثم أخذ فى تشريد الأثرياء ومصادرة أموالهم دون شفقة أو رحمة(٣) .

صدى عودة الزمار فى روما :

وما كاد جابينيوس يستقر فى مصر حتى سمع بالإضطرابات التى شملت

ويقال إن المبلغ الذى عرضه بطلميرس الزمار على جابينيوس نظير قيامه بغزو مصر وإعادته إلى عرشه ، كان عشرة آلاف تالنتا .

(١) Cic., op. cit. 8.

(٢) Joseph., Ant. J., XIV, 6, 2.

(٣) Dio Cass., XXXIX, 58.

ويبدو أن الملك أشرك معه فى الملك ابنه الأكبر (Cf. B. - Leclercq, II, p. 164, No. 1) .

ولايته أثناء غيابه عنها ، فأسرع بالعودة إليها تاركاً فى مصر قوة من جيشه لحماية الزمار[١] . ويبدو أن أنباء غزوة جابينيوس لمصر لم تكن قد وصلت إلى روما بصفة مؤكدة كما نفهم من كتاب أرسله ششرون إلى أتيكوس يحدثه فيه عن الشائعات المتواترة بهذا الصدد ، ويطلب إليه مزيداً من المعلومات[٢] . على أن الأخبار سرعان ما تأكدت ، وبدأت حملة المحافظين على جابينيوس الذى ترك ولايته دون إذن من السناتو ، وعرّض سكانها لبطش عصابات اللصوص وقطاع الطرق . وحاول بومبى وكراسوس القضاء على هذه الحملة دون جدوى . ولم ينس شيشرون لجابينيوس أنه كان أحد قنصلى عام ٥٨ ق.م. ، وأنه هو الذى عمل على نفيه خارج روما كما ذكرنا[٣] ، فبدأ يعبىء كل فصاحته لمهاجمة جابينيوس ، وطالب بإعادته إلى روما لمحاكمته ، معدداً المتاعب والمصائب التى تسبب فيها ، ومتهماً إياه بالسرقة والرشوة والخيانة والقتل[٤] . ولكن العجيب حقاً أن شيشرون لم يذكر كلمة واحدة عن غزوة مصر ، وتلك أقوى حجة يستطيع أن يهاجم بها جابينيوس ! إن شيشرون لم يكن قد نسى بعد أن بومبى هو الذى أعاده من منفاه ، وهو الذى يريد الآن حماية جابينيوس . لقد كان كل شىء ممكناً فى حلبة السياسة الرومانية الداخلية ، وفى ميدان الصراع الحزبى ، إلا التمسك بالمبادئ والدفاع عن الحق لوجه الحق وحده ؛ وليس أدل على ذلك من أن شيشرون نفسه وقف بعد ذلك بشهرين اثنين يهاجم جابينيوس مرة أخرى فى مجلس الشيوخ الرومانى ، فلم ينس فى هذه المرة غزوته على مصر ، ووصفه بالرجل الذى باع نفسه لملكها ، وسخر له جيش الشعب الرومانى ، غير عابئ بأوامر الآلهة الخالدة ، أو بسيادة مجالس الشيوخ ورغبات الشعب كله[٥] .

وطال الانتظار بالرومان دون أن يعود إليهم جابينيوس ، فاشتد القلق

---

(١) Dio Cass., XLII, 5.

(٢) Cic., Ad Att., IV, 10.

(٣) كان القنصل الثانى عندئذ كالبورنيوس بيزو .

(٤) Cic., Prov. Consul., 2-7.

(٥) Cic., In Pison, 21.

بكراسوس الذى كان ينتظر وصول جابينيوس ليحصل منه على نصيبه من الغنيمة كما وعده الزمار[١] . لهذا ترك كراسوس روما ، وسافر فى أواسط شهر نوفمبر من عام ٥٥ إلى سوريا يتولى حكمها بدلا من جابينيوس ، وليقتضيه هناك نصيبه الموعود من الغنيمة . . . لكن جابينيوس رفض أن يسلم ولايته للحاكم الجديد ، ووصلت هذه الأنباء إلى روما ، فوقف شيشرون فى مجلس الشيوخ وألقى خطاباً حماسياً ضد جابينيوس « الذى لطخ سمعة روما وهوى بكرامة الإمبراطورية إلى الحضيض » وطالب باستشارة كتب سيبيلى مرة أخرى[٢] . وفى هذه الأثناء فاض نهر التيبر ، فاعتبر فيضانه نذير سوء من السماء ، وأصبح لا مفر من توقيع العقاب الصارم على جابينيوس . وقد صدر الحكم عليه بالإعدام بعد أن ثبتت عليه تهمة المروق من القانون[٣] .

وما كاد نبأ هذا الحكم الصادر يبلغ سمع جابنييوس حتى عول على الذهاب إلى روما مطمئناً إلى حماية صديقه بومبى ، فوصلها فى التاسع عشر من شهر سبتمبر عام ٥٤ ق.م. وفى روما أعيدت محاكمة جابينيوس ، وانتهت المحاكمة بتخفيف العقوبة الأولى (الإعدام) ، واكتفى بتوقيع غرامة باهظة عليه (عشرة آلاف تالنتا) بعد أن استطاع حماته نفى تهمة « دخول مصر بقوة عسكرية دون إذن من السناتو » . أما التهمة التى عجزوا عن تبريرها فكانت قبول الرشوة من الزمار ، والواقع أن الجهود التى بذلت للقضاء على هذه التهمة أيضاً كانت كبيرة ، فقد قدم قيصر وبومبى وملك مصر شهادات مكتوبة بأن جابينيوس لم يحصل على أية رشوة ، بل إن الزمار أوفد سفارة إلى روما لتدفع التهمة ، وبرغم ذلك كله أدين جابينيوس ، ولما لم يستطع دفع الغرامة المقررة فقد تقرر نفيه[٤] .

ولم تكن هذه هى المحاكمة الوحيدة التى شهدتها روما نتيجة للمسألة المصرية .

---

(١) Dio Cass., XXXIX, 60.

(٢) Dio Cass., XXXIX, 59-61.

(٣) Dio Cass., XXXIX, 61.

(٤) وقد وقف شيشرون موقفاً طيباً من جابينيوس حتى لا يغضب عليه بومبى
Cf. Cic., Pro Rabir., 8, 11-13.

فقد حوكم أيضاً رابيريوس بوستوموس الذى استدان منه الزمار مبالغ باهظة ، وكانت هذه المحاكمة – بما ألقى فيها من خطب دفاعية – سبيلا لوقوفنا على معلومات لا بأس بها عما كان يجرى فى الإسكندرية حينئذ .

فما أن وطأت قدما الزمار أرض مصر حتى زحفت على الإسكندرية عصابة الجشعين الذين أمدوه بالمال وهو فى روما ، وفى مقدمتهم رابيريوس أحد كبار رجال المال فى عصره . وكان الزمار قد استدان من هذا الرومانى المبالغ التى دفعها ثمناً لحصوله على لقب « حليف وصديق الرومان » من قيصر فى عام ٥٩ ق.م. وأغلب الظن أن ملك مصر لم يرد هذا الدين إذ اضطر إلى ترك بلاده فى العام التالى . ولكى يضمن رابيريوس أمواله ، لم يضن على بطلميوس بما كان يطلبه طوال إقامته فى روما . فلما استرد المدين عرشه ، لحق به الدائن ليحصل على أمواله وفوائدها ، وليدبر للزمار المبالغ التى وعد بها جابينيوس .

وتفتق ذهن ملك مصر عن حيلة بارعة يسد بها جشع رابيريوس ، ويكفى نفسه بها مئونة المتاعب ، فعينه وزيراً لماليته[١] . واعتمد رابيريوس على القوات التى تركها جابينيوس فى مصر ، فأطلق يده فى أفراد الشعب يمتص دماءهم ليحصل على أقصى ما يمكن الحصول عليه من أموال . وكانت النتيجة أن جأر المصريون بالشكوى وبدت فى الأفق نذر ثورة عاتية ، فما كان من الزمار إلا أن زج برابيريوس فى السجن حتى يرضى شعب الإسكندرية ويخفف من حدة غضبه . لكن الأسكندريين كانوا أفطن من أن تجوز عليهم هذه الحيلة ، فقد أدركوا ببديهتهم أن الملك إنما يريد أن يحمى وزيره الرومانى ، لهذا حاولوا اقتحام السجن الذى أودع فيه ، ولكنه لاذ بالفرار[٢] ، وأغلب الظن أن الزمار نفسه هو الذى مهد له طريقه .

وما كاد رابيريوس يصل إلى روما حتى بدأت محاكمته . ولما كان قيصر قد بسط عليه حمايته ، فقد وقف شيشرون يدافع عنه إرضاء لقيصر كما دافع عن جابينيوس فى محاكمته الثانية إرضاء لبومبى . ولم يسلم من ألفاظ شيشرون القاسية

---

(١) Ibid., loc. cit., 8 & 10.

(٢) Ibid., loc. cit.

أعضاء سفارة الإسكندرية الذين أتوا إلى روما لتوجيه الاتهامات ضد رابيريوس... وانتهت محاكمة رابيريوس بتوقيع عقوبة النفى عليه فيما يرجح .

وفاة الزمار :

وبانتهاء هذه المحاكمة اختفت المسألة المصرية من حلبة الصراع الحزبى فى روما اختفاء مؤقتاً ؛ فلم يعد أحد يسمع عن بطلميوس الزمار فى عاصمة الجمهورية . ولم يعش هذا الملك طويلا بعد ذلك ، فقد جاء فى خطاب أرسله « جايليوس» من روما إلى « شيشرون » فى كيليكيا ما يلى : « لقد بلغنا أن ملك الإسكندرية توفى ، ويبدو أن النبأ صحيح ، فاكتب إلى تفصيلا بما لديك من معلومات ، وما الذى تنصحنى به ؟ وما حال هذه المملكة الآن ؟ ومن الذى يتولى الأمر فيها ؟ »(١) ومما يؤسف له أن رد شيشرون على هذا الخطاب قد فقد . لكن الذى لا نشك فيه أن رجال الإسكندرية حاولوا إخفاء نبأ وفاة ملكهم بعض الوقت حتى يرتبوا أمورهم ويضعوا روما أمام الأمر الواقع فلا تجد فرصة للتدخل فى شئونهم . وإذا كان خطاب « جايليوس » قد كتب فى أول يوم من شهر أغسطس عام ٥١ ق.م. ، فأغلب الظن أن تكون وفاة الزمار قد حدثت قبل ذلك التاريخ بحوالى شهرين على وجه التقريب . . . ولقد ذهب بطلميوس الزمار إلى قبره مشيعاً — دون ريب — بلعنات المصريين الذين ذاقوا منه الأمرين ، ولا نظن أنه ظفر من سادته الرومان بغير الاحتقار والازدراء الجديرين برجل مثله .

محمد عواد حسين

(١) Cic., Ad Fam., VIII, 4, 5.